العلمانية في خدمة المسيحية

(جماعة سانت ايجديوا نموذجا)

د. حنان خيالهي

العلمانية في خدمة المسيحية

﴿جماعة سانت ايجديوا نموذجا﴾

د. حنان خياطي

عنوان الكتاب:

العلمانية في خدمة المسيحية
(جماعة سانت ايجديوا نموذجا)

تأليف:

د. حنان خياطي

الطبعة الأولى 2014

رقم الإيداع القانوني:
2014 MO 2860

ردمك:
978- 9954- 34- 168- 1

الطبع:

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي الداوديات
مراكش - الهاتف : 74 30 37 24 05 - 91 25 30 24 05
e-mail: lwatanya@gmail.com 05 24 30 49 23 الفاكس

المقدمة:

تواجه الأمة تحديا حضاريا وعقديا كبيرا فالحضارة الغربية امتدت امتدادا عشوائيا ساعية إلى إزاحة الأمم والحضارات الأخرى من طريقها، وتدمير كافة البنى التحتية الثقافية والفكرية والاجتماعية ،وانطلقت بطوفان جارف من التغريب يتخطف كافة الشعوب والأمم التي أصبح كثير منها يركع إثر انهيار مقاومته الفكرية.

ولكن هل استطعنا أن نفهم الغرب حقا وندرك كيف يفكر؟ وكيف ينظر إلينا؟ وهل استطعنا أن نفهم الواقع الغربي فهما حقيقيا، ونحلل مواطن القوة والضعف فيه؟

إن الشجب والذم المطلق هو الأسلوب الوحيد والدائم عند طائفة من الناس في فهم الغرب والتعامل معه، فهم لا ينظرون إلى الواقع الغربي إلا من خلال بعض المظاهر الاجتماعية وغياب دور الأسرة الفعال وانتشار المخدرات، والشذوذ والإيدز والأمراض الجنسية ..الخ.

وحتى في هذا الجانب ربما تطغى السطحية في تلمس السلبيات والأمراض التي يعاني منها الغرب، وفي المقابل فإن الانبهار والإعجاب المطلق هو الأسلوب الوحيد عند طائفة أخرى من الناس في فهمه ودراسة حضارته، فهم لا يرون في الغرب إلا تقدمه التقني والتجريبي في كافة العلوم التطبيقية ويغفلون عن جوانب أخرى تستحق الرصد والمتابعة لاستثمارها والاستفادة منها، مثل تأسيس قواعده الحضارية من حيث الجملة على أسس علمية بعيدة عن المحاباة أو المجاملة والتزامه بالعقلية المؤسسية التي لا ترتبط ارتباطا تاما بالأفراد بل تعتمد على الأنظمة والسياسات العامة وعقلنة الحياة اليومية للأفراد داخل منظومته، إلى جوانب عديدة من جوانب التقدم والتفوق .

إن فهم الواقع الغربي ورؤيته برؤية عميقة ناضجة من الداخل، باب رئيسي من أبواب تلمس الحق ،بل من أبواب التغيير في واقعنا إذا أخذنا في الاعتبار تأثر كثير من المتنفذين في بلادنا الإسلامية بالغرب، ولن نستطيع مدافعة الغرب ومنازلته ثم اختراقه ما لم نقرأ واقعه قراءة شاملة ودقيقة وأمينة، وما لم نتعرف عليه التعرف الصحيح الذي يضع الأمور في نصابها وحجمها الصحيح، وإنه لمن الخطر البالغ أن ننظر إلى الواقع

الغربي ببدائية تفتقر إلى أيسر الأسس العلمية في المواجهة والمدافعة ونحن نقرأ قول الله تعالى : (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين)الأنعام/56.

وإصلاح الوضع الداخلي للأمة الإسلامية لن يكون بمعزل عن تفهم الواقع العالمي بكل أبعاده فقد تداخلت الحضارات وتشابكت الأمم بشكل لم يشهد له العالم مثيلا من قبل.

ومن هذا المنطلق كان اختياري لموضوع العلمانية في خدمة المسيحية جماعة سانت إيجديوا نموذجا.

لأن العلمانية أصبحت من القضايا المسلم بها في الفكر الغربي ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية ، ولكن الملاحظ أن القليل من الناس غير المختصين من لديه معلومات دقيقة أو مفاهيم واضحة عن ماهية العلمانية، بل إن مفهوم العلمانية لا يزال من بين أكثر المفاهيم سجالية وحساسية وخاصة في الثقافة العربية بعد مرور ما يزيد من قرن ونصف من تداوله وانتشاره .

والواقع أن الغرب غير من مفهوم علمانيته وما زلنا نحتفظ بصورة قديمة عنه وجزئية حتى مازالت في ذهن الكثير منا علمانية الغرب مرتبطة بالالحاد ،شاهرا سيفه على كل دين وبالعلمانية المفرغة من كل عاطفة وشعور إنساني وقيم أخلاقية سامية .

والمثل التطبيقي الذي قدمته عن (جماعة سانت إيجديوا) كان محاولة للوقوف على حقيقة العلمانية الجديدة ، من خلال هذا النموذج الغربي الذي يمثل ما يقوم به المجتمع المدني من أعمال تؤكد الرغبة في بقاء المسيحية عقديا واجتماعيا وثقافيا، فالمجتمع الذي بقي أكثر من تسعة عشر قرنا يعيش في ظل قيم الدين من المستحيل أن يتنكر لها ، وهذا ما تشهده المجتمعات الغربية المتقدمة ويسمى (بعودة المقدس)، ومن هذا المنطلق كان حضور العلمانية الجديدة من خلال التركيز على منظومة من القيم والمبادئ تجعلها أكثر قربا من وجدان شعوبها وتعمل على نقل وعي وسلوكيات شعوبها والحفاظ على هويتها والمتمثلة أساسا في الهوية الدينية ، كما تعمل على انبعاث جديد للدين وتضع الإنسان أمام أمل جديد في إحياء المجتمع وتجديد الجوهر المتسامي للدين .

والجماعة المقصودة بالدراسة علمانية ليست بالمفهوم المتداول بيننا في قواميسنا ومعاجمنا وعند كثير من مفكرينا خاصة المعاصرين منهم، ولكنها علمانية العمل والتفكير والرقي وما تريد تحقيقه للمجتمع الغربي الذي يشكل الدين فيه لبنة قوية محورية تدور حولها مفاهيمه وقيمه، والأمراض التي يعاني منها والتي تفهم فهما مجافيا فهي أمراض تمر به لحد الآن كريح باردة من يوم حر شديد تصيب بالزكام ولا تقتل ولا تشير إلى بوادر الانهيار .

فهذه إذن كانت الأسباب الحقيقية لاختيار الموضوع .

أما عن خطة البحث فكانت كالتالي :

المقدمة: فيها توضيح لأهمية الموضوع وأسباب اختياره.

الفصل الأول: قسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول: في مصطلح العلمانية

المبحث الثاني : العلمانية ، الفكرة والتاريخ .

الفصل الثاني: قسمته أيضا إلى مبحثين :

المبحث الأول: كيف واجهت الكنيسة تحديات العلمانية؟

المبحث الثاني: النموذج الغربي للعلمانية الجديدة (جماعة سانت إيجديوا)

الخاتمة : جاءت كخلاصة عامة .

الفصل الأول

المبحث الأول:

﴿في مصطلح العلمانية﴾

يكتسي تحديد المفاهيم أهمية بالغة، فمن خلاله نتعرف على معاني المصطلحات ودلالاتها وما نقصده من استعمالها، خاصة إذا كانت الكلمات تحتمل أكثر من معنى ، فبتحديد المفهوم يتضح مقصود الخطاب ويبرز مراده ،ويتم الاحتراز بذلك من المعاني التي يحتملها اللفظ أو يراد تحميلها للفظ باعتماد معايير خاصة ووفق تأويل مغاير ، وربما باعتماد مرجعيات تصورية تناولت اللفظ لكن بفهم خاص .

تعريف العلمانية:

مفهومها : اللغوي والاصطلاحي:

يعد مصطلح العلمانية من أهم المصطلحات في الخطاب التحليلي الاجتماعي والسياسي والفلسفي الحديث، لكنه ما يزال مصطلحا غير محدد المعاني والمعالم والأبعاد ، ويرجع إبهامه إلى عدة أسباب.[1]:

1- فهو أولا مصطلح منقول من المعجم الأجنبي والتشكيل الحضاري الغربي، ولذلك فدلالته الحقيقية تتحدد بالإشارة إلى هذا المعجم وهذا التشكيل الحضاري وهو يكتسب مضمونه الحقيقي منها.

2- يوجد داخل هذا التشكيل الحضاري عدة تشكيلات فرعية، فهناك التشكيل الفرنسي (الكاثوليكي) والإنجليزي والألماني (البروتستانتي) وكل تشكيل عرف المصطلح بطريقة مختلفة من خلال تجربته الخاصة.

3- خاضت هذه التشكيلات الحضارية تحولات مختلفة وتزايدت فيها معدلات العلمنة واختلفت المواقف باختلاف المرحلة التاريخية وباختلاف الجماعة التي تقوم بعملية التعريف .

4- خروج مصطلح علمانية من رحم التجربة الغربية، وانتقاله إلى القاموس العربي الإسلامي مثيرا للجدل حول دلالاته وأبعاده، والواقع أن الجدل حول مصطلح العلمانية في ترجمته العربية يعد إفرازا طبيعيا لاختلاف الفكر والممارسة العربية

[1]-عبد الوهاب المسيري ،دراسة بعنوان " العلمانية رؤية معرفية" مجلة الدراسات الإسلامية ،العدد الرابع ، المجلد التاسع والعشرون ، أكتوبر 1994

الإسلامية عن السائد في البيئة التي أنتجت هذا المفهوم[1]، فمن المفكرين من يرى أن أدق ترجمة للمصطلح هي العلمانية (بكسر العين) نسبة إلى العلم، ويعتبرون أن هذا اللفظ يتفق مع أصل الكلمة، إذ هي في الأصل معناها العلم، ويعتبرون أن هذا الأصل اللاتيني للكلمة (Secularius) ومعناها عالم (متبحر)[2] ويدعمون رأيهم بالقول : إن نشأة هذا المصطلح تعود إلى الصراع الذي نشب بين الكنيسة والعلماء، فصار العلم علما على الحد من سلطان الكنيسة، ومن ثم صارت (Sécularisme) علما على عدم امتداد سلطان الكنيسة إلى العلم والعلماء .وعلى هذا يعتبر الكسر أولى من الفتح لأنها مصطلح وقال العلماء قديما(لا مشاحة في الاصطلاح).

ويرى آخرون أن النطق الصحيح هو (العلمانية) أو (العالمية) بفتح العين نسبة إلى (العالم) أو (الدنيا) ، ويذهب البعض إلى تسميتها (بالدنيوية)* أي الإقبال على الحياة وحدها والإعراض عن الآخرة.كما يشير بعض المفكرين إلى الظاهرة باعتبارها (الزمنية) أي أن كل الظواهر مرتبطة بالزمان والدنيا ولا علاقة لها بأي ورائيات.[3]

والواقع أن لفظ العلمانية بفتح العين نسبة إلى العالم – أو الدنيا بعبارة أدق هو الأصح .ويمكن ترجيحه للأمور التالية :

1- أن نسبة العلمانية بكسر العين إلى العلم ترجمة غير دقيقة بل غير صحيحة لكلمة (Sécularisme) في الإنجليزية أو (Sécularité) أو (Laïque) بالفرنسية وهي كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق على الرغم من أن المواقف المتشددة التي اتخذتها السلطات الكنسية ضد العلماء، والتي بلغت حد التحريق و كان لها تأثير كبير ودور حاسم في نشوء العلمانية في أوربا، فالعلم في الإنجليزية والفرنسية معناه

[1]–عبد الوهاب المسيري : دراسة بعنوان "العلمانية" مجلة النهار 2001.

[2]– علي جريشة : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص7 ط2 دار الوفاء مصر 1986

* ذهب الى هذا المعنى عدد من المفكرين منهم، عادل حسين ومحمد البهي وعبد الحليم محمود وسبقهم إلى ذلك عباس محمود العقاد.

[3]– عبد الوهاب المسيري : دراسة بعنوان العلمانية رؤية معرفية، العدد 4 المجلد 29 أكتوبر 1994

(Science) والمذهب العلمي يطلق عليه (Scientisme) والنسبة إلى العلم هي (Scientific) أو (Scientifique) في الفرنسية* .

2- إن قواعد النسبة إلى الشيء في اللغة العربية معروفة وتكون بإضافة ياء مشددة في آخر الكلمة كقولنا روحاني وجسماني ونوراني نسبة إلى روح وجسم ونور ونقول العالمية نسبة إلى العالم، والعلمية نسبة إلى العلم، ويقال علم وعالم وعالمي .

3- لقد أجمعت كل المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية على مفهوم اصطلاحي واحد للعلمانية فحواه الدنيوية أو المذهب الدنيوي، يقابله الأمر (الديني) أو الشأن الكنسي[1].

المفهوم الاصطلاحي للعلمانية:

لابد في البداية من التعرض للمصطلحات الأوربية التي تشير إلى الظاهرة وأهم هذه الكلمات (سيكولاريزم) (Secularisme) وهي كلمة إنجليزية لها نظائرها في اللغات الأوربية، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (سايكيولومSaeculum) وتعني عصرا أو جيلا، أما في لاتينية العصور الوسطى (التي تهمنا في سياق هذه الدراسة فالكلمة تعني العالم أو الدنيا، في مقابلة الكنيسة، وقد ظل هذا المعنى لصيقا بالكلمة بعد أن دخلت اللغات الأوربية المختلفة وقد استخدم المصطلح (سكيولار) لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عاما* (1618-1648) عند توقيع صلح (وستفاليا) وبداية ظهور الدولة القومية أي الدولة العلمانية الحديثة وكان المصطلح محايدا تماما إذ ثم الإشارة إلى علمنة ممتلكات الكنيسة، بمعنى نقلها إلى سلطات سياسية غير دينية ،أي إلى سلطة الدولة أو الدول التي لا تخضع لسلطة الكنيسة ، وفي القرن الثامن عشر في فرنسا أصبحت الكلمة تعني من جهة نظر الكنيسة الكاثوليكية المصادرة غير الشرعية لممتلكات الكنيسة .

---

* إن الذين تولوا الترجمة لم يفهموا من كلمتي الدين والعلم إلا ما يفهمه الغربي النصراني منها، والدين والعلم في مفهوم الإنسان الغربي متضادان، فما يكون دينيا لا يكون علميا وما يكون علميا لا يكون دينيا.

[1]- سفر الحوالي : العلمانية وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، ص21، ط1 مؤسسة قرطبة.

* حرب الثلاثين عاما هي الحرب التي مزقت أوربا وأنهكت اقتصادها ، تعتبر نتيجة طبيعية لحركة الإصلاح الديني وما نتج عنها من انقسام أوربا إلى معسكرين ، ولم تكن هذه الحرب حربا محلية ، بل كانت حربا أوربية اشتركت فيها دول أوربية كثيرة .

أما من وجهة نظر مجموعة من المفكرين الفرنسيين المدافعين عن مثل الاستنارة والمعروفين باسم الفلاسفة الماديين الملحدين فكانت الكلمة تعني المصادرة الشرعية لممتلكات الكنيسة لصالح الدولة[1].(والاستخدامات الثلاث المحايد والسلبي والإيجابي ظلت لصيقة بالمصطلح).

أما في اللغة الفرنسية فتوجد كلمة (laic) أو (Laique) وتدل كتعبير لاهوتي على إنسان لا شراكة له مع من لهم السلطة (سلطة الإدارة أو سلطات الأسرار في الكنيسة، أي ما لا يدخل في إطار الإكليروس).[2] فالعلماني إذا ليس كنسيا وميدان عمله الرئيسي الالتزام الزمني، ومعنى علمانية (laïcisme) هو الإشاحة عن الانتساب إلى فئة الكهنوت، ولذا درج الباحثون الاجتماعيون على مصطلحي العلمانية المؤمنة والعلمانية الملحدة.[3]

وأضفت الأكاديمية الفرنسية على تعبير (Laïcité) (إعطاء المؤسسات خاصية غير دينية)[4].

والعلمانية في قاموس ليتريه (Littré) هي " غياب كل المظاهر الدينية من النظم السياسية ،إنها مفهوم يرتكز على الفصل التام بين المجتمع الديني والمجتمع المدني"[5].

وقد انتقلت الكلمة (laïque) إلى الانجليزية في كلمة (ليس) (Laïc) بمعنى خاصة بجمهور المؤمنين بوصفهم طبقة متميزة ومنها كلمة (ليبتي) (Laity) وهم الكافة باستثناء رجال الدين وكلمة (ليسيزم) (laïcisme) بمعنى النظام العلماني ،أي بمعنى ينزع عنه الصبغة الكهنوتية أو يعلمن خاصة المدارس، (ليسايزيشن) ((Laicization) أي نقل

---

[1]– عبد الوهاب المسيري دراسة العلمانية رؤية معرفية ، مجلة الدراسات الإسلامية عدد 4 المجلد 29 ص7، أكتوبر 1994.

[2]– كارل راهنر Karl Rehner وهربرت غريملر Harbert Glimer معجم اللاهوت الكاثوليكي ، ترجمة عبده خليفة، كلمة علماني ، ص22

[3]– عبد الله العيلايلي (كلمة علمنة) مجلة آفاق ، حزيران 1978 ص1–2.

[4] – Edmond Rabbath ; L'idée de laicité dans la réflexion sur la laïcité conférence de l'université ,st,esprit p38

نقلا عن الدكتور حسين سعد، بين الأصالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية عند بعض المفكرين العربي في مصر ، ص12، ط1، مصر 1993.

[5]– عصام خليفة : مدخل إلى تحديد العلمانية ، مجلة الجندي ، نيسان 1982 ص24–27.

كثير من وظائف رجال الدين والكهنوت إلى خبراء يتم تدريبهم زمنيا لا علاقة لهم بالعقائد الدينية التي تستند إلى الإيمان بما وراء الطبيعة بحيث تصبح مهمة رجال الدين مقصورة على الأعمال الدينية، ومن أهم هذه الوظائف التعليم والقضاء والخدمات الاجتماعية، والفعل الإنجليزي المشتق عن الفرنسية يحمل بصمات أصوله الفرنسية والتجربة الفرنسية في العلمنة (المرتبطة بالثورة الفرنسية) التي أخذت شكلا حادا وقاطعا، فمؤسسة الكنيسة كانت قوية في المجتمع الفرنسي القديم وكانت امتيازات النبلاء واضحة محددة، كما كان هناك تداخل شبه كامل بين طبقة النبلاء ورجال الدين خاصة ذوي المراتب الرفيعة ولذا كان رد الثوار عنيفا ومنهجيا، يأخذ شكل رفض النظام القديم متمثلا في الحكومة الملكية المطلقة، وفي نظام الطبقات السائد ومؤسسة الكنيسة وكل الرموز السياسية والدينية القائمة ووصل الرفض إلى حد ذبح النبلاء وكثير من أعضاء طبقة الكهنوت والى تحويل بعض الكنائس إلى معابد تعبد فيها ربة العقل، ووضع سياسة منهجية صريحة تهدف إلى تصفية أي مضمون ديني في التعليم أو القانون، ونظرا لارتباط المصطلح الفرنسي بتجربة تاريخية محددة نجده محدود الدلالة وربما لا يصلح إلا لوصف عملية العلمنة في المجتمع الفرنسي ذاته.[1]

وقبل أن ننتقل للمصطلح الإنجليزي (سكيولار) (secular) ثمة مصطلح آخر قريب من (ليبسايز) هو (دي كريستيانايز) (Dechristianize)أي "ينزع الصبغة المسيحية عن المجتمع"، وهو مصطلح محدود الدلالة أيضا لا يصلح إلا للمجتمعات التي تسود فيها المسيحية.

ومن الكلمات الأخرى التي تستخدم للإشارة لهذه الظاهرة اصطلاح (دي سانكتفاي) (Desnctify) أو (دي ساكرالايز) (Desacralize) أي نزع القداسة عن كافة الظواهر بحيث تصبح لا حرمة لها وينظر لها نظرة مادية لا علاقة لها بما وراء الطبيعة وقد عرفت العلمانية أيضا بأنها (Disenchantement of the world) أي "أن يفقد العالم سحره وجلاله" أي يصبح مادة محضة لا أسرار فيها العقل للإحاطة بها ومعرفة قوانينها

[1]– عبد الوهاب المسيري: دراسة العلمانية رؤية معرفية مجلة الدراسات الإسلامية ،العدد 4 مجلد 29 أكتوبر 1994، ص9.

والتحكم فيها، ونحن نرى أن هذين المصطلحين الأخيرين وثيقا الصلة بمصطلح (سكيولار) (Secular) وأن المجالات الدلالية تتداخل.[1]

وقد يكون من المفيد الآن الانتقال للمصطلح الإنجليزي (سكيولار)((Secular) المأخوذ من الأصل اللاتيني، وهو أكثر المصطلحات تأثيرا في المصطلح العربي. وقد اتسع المجال الدلالي للكلمة على يد جون هوليوك(John Holyook) (1817-1906)* الذي عرف العلمانية بأنها " الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض" ولكن المصطلح اكتسب مجالا دلاليا أوسع من ذلك بكثير، وأصبح مصطلحا يصف ظاهرة اجتماعية وتحولات بنيوية ليس لها علاقة محددة بأي حركة فكرية وإنما هي نتيجة حركة تاريخية كاسحة.

تقول دائرة المعارف البريطانية : مادة (Sécularisme) :" هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم عن الاهتمام بهذه الدنيا، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـــ (Sécularisme) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية ،حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون قلقهم الشديد من الإنجازات الثقافية والبشرية وإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا الغربية وظل الاتجاه(Sécularisme) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية"[2] .

ويقول قاموس العالم الجديد (لوبستر) شرحا للمادة نفسها:

1- الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك على الخصوص، نظام من المبادئ والتطبيقات (Practices) يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

---

[1]- عبد الوهاب المسيري: دراسة العلمانية رؤية معرفية مجلة الدراسات الإسلامية ،العدد 4 مجلد 29 أكتوبر 1994،ص 11

*كان جون هوليوك أول من بحث المصطلح بمعناه الحديث، وقد حاول أن يجعله مصطلحا محايدا ، ومصطلح علماني عنده يشير إلى عنصر إيجابي وأخلاقي غائب في مصطلحات مثل كافر أو ملحد.

[2]- Encylopidia Britanica chicago, vol lx p19-1978

2- الاعتقاد بأن الدين والشؤون الكنسية لا دخل لها في شؤون الدولة، وخاصة التربية العامة.[1]

ويقول معجم (أكسفورد) شرحا لكلمة (Secular):

1- دنيوي أو مادي ، ليس دينيا ولا روحيا، مثل التربية اللاتينية ، الفن أو الموسيقى اللاتينية ، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

2- غير معني بخدمة الدين وغير مكرس له، غير مقدس وتستخدم الكلمة أيضا للإشارة (للمباني العلمانية) وهي غير المكرسة للأغراض الدينية .

3- الرأي الذي يقول إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية.[2]

ويقول المعجم (الدولي الثالث الجديد) مادة (Sécularisme):

(اتجاه في الحياة ، أو في أي شأن خاص، يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعادا مقصودا ، فهي تعني مثلا السياسة اللادينية البحتة في الحكومة وهي نظام اجتماعي في الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين).[3]

ويقول المستشرق (أبري) في كتابه (الدين في الشرق الأوسط) عن الكلمة نفسها:

(إن المادة العلمية والإنسانيةوالمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال للادينية، واللادينية صفة مميزة لأوربا وأميركا، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط فإنها لم تتخذ أي صيغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية)[4].

---

[1] -Webester New World Dictionary p128.

[2] -Oxford Advanced learner's Dic785.

[3] -Webester third new international Dic2053

[4] -Religion in the middle east-A-JAbery vol 2 p606-607

واختلفت النظرة إلى العلمانية، عند الكتاب والمصلحين العرب الذي تناولوها وذلك تبعا للمواقع الفكرية التي انطلقوا منها، والأهداف التي سعوا وراءها، فالمطران (غريغوار حداد) المعروف بدعوته إلى اعتماد نظام العلمنة في لبنان يحدد العلمانية (بفتح العين) بأنها:

(أولا نظرة شاملة للعالم ، بمعنى الكون كله أي مجموعة الكائنات ، وهذه النظرة الشاملة تؤكد استقلالية العالم بكل مقوماته وأبعاده وقيمه تجاه الدين ومقوماته وأبعاده، أي مثالا: استقلالية الدولة والمجتمع ومؤسساتهما وقوانينها وقضاياهما وسلطاتهما عن المؤسسات والقوانين والسلطات الدينية)[1]، ويمضي المطران حداد في شرح معنى الاستقلالية، يقول : (الاستقلالية تعني أن هناك قيمة ذاتية فعلية للعالم والمجمع والإنسان وقضاياه غير مستمدة من الدين والقيمة الدينية)[2]

أما الشيخ محمد مهدي شمس الدين فيتناول العلمانية من وجهة نظر إسلامية رافضة لها فيصفها بأنها نهج حياتي مادي تكون نتيجة لنمو الفلسفات المادية اللادينية وهي النهج الحياتي الذي يستبعد أي تأثير أو توجيه ديني على تنظيم المجتمع والعلاقات الإنسانية داخل المجتمع.[3]

ويضع ياسين الحافظ المتأثر بالفكر الأوربي بشقيه الغربي والماركسي إطارا تاريخيا لمصطلح العلمنة ، فيربط نشأتها في الغرب بسيطرة العقل على توجيه المجتمعات، وبظهور القومية ، كإطار اجتماعي- سياسي لشعوب أوربا يقول بهذا المعنى أن (العلمنة كما نشأت في الغرب هي إحدى المظاهر الفرعية لعقلنة المجتمع فضلا عن أنها نتيجة من نتائج قومنة المجتمع).[4]

[1]- غريغوار حداد (العلمنة استراتيجية أم تكتيك) في مجلة آفاق ، حزيران1978 ص64-93.

[2]- ن.م نفس الصفحة

[3]-محمد مهدي شمس الدين (العلمانية)، ص7 بيروت.

[4]- ياسين الحافظ، الأيديولوجية التقليدية الإسلامية والأيديولوجية التقليدية المسيحية في لبنان الآخر ، ص102

في التحديدات السابقة ، يتميز كلام (المطران حداد بأنه ينطلق من صميم فكرة العلمنة أي الاستقلال بين نطاق العالم والمجتمع جزء منه وبين نطاق الدين، وبأن لكلا النظامين وجودا قائما بذاته.

أما ما أورده (الشيخ شمس الدين) و(–الحافظ) فإنه ينظر إلى العلمانية من خلال العوامل التي أدت إلى نشوئها وساهمت في بروزها كاتجاه يحكم المجتمعات الأوربية.[1]

وبهذه المعايير حدد مدلول (مصطلح العلمانية) في المفهوم الغربي والعربي.

[1]– د. حسين سعد بين الأصالة والتغريب ،ص13.

الفصل الأول

المبحث الثاني:

العلمانية

الفكرة والتاريخ

نشأة وتطور العلمانية في الغرب (ظروف وأسباب):

نشأت العلمانية في الغرب، نشأة طبيعية نتيجة لظروف ومعطيات تاريخية دينية واجتماعية وسياسية وعلمية واقتصادية، خلال قرون من التدرج والنمو الطبيعي والتجريب والتكامل ،حتى وصلت إلى صورتها التي عليها اليوم.

ويذهب زكريا الفايد في كتابه (العلمانية النشأة والأثر) إلى القول: (أن هذه الظاهرة التي ظهرت بوضوح وجلاء في القرن السابع عشر الميلادي، ما هي إلا مرحلة عالية من نظرة عامة متأصلة وعميقة الجذور في نفس الإنسان الغربي منذ بدايات وعيه بذاته أي منذ بداية الحضارة اليونانية، إذ أن المتتبع للفن اليوناني المختلط بالأساطير والعقائد اليونانية سرعان ما تبتدئ أمام عينيه هذه النظرة العلمانية بوضوح وجلاء، إذ أن ملحمتي الشاعر اليوناني هوميروس* والإلياذة والأودسة تظهران بوضوح ما تنطوي عليه هذه النفس الغربية من صراع أصيل وعميق بين الإنسان والآلهة، فما الأودسة إلا صراع ومرير بين البطل أوديسيون وهو الإنسان والآلهة نبتون، إله البحر وهذا الصراع الذي ينهيه صاحب الأسطورة بهزيمة الإله وانتصار الإنسان)[1].

ويبرز هذا الصراع متأصلا في الفلسفة اليونانية،إذ بينما جعل أرسطو الإله قابعا في مكانه قاصرا كل عمله على عملية خلق العالم فقط دون مد هذا العالم بعنايته ورعايته وتنظيمه الدائم نجد المدرسة الرواقية* تنزل الإله من عرشه وتدمجه في الطبيعة ،ولا تجعل له وجودا خارج هذه الطبيعة.[2]

ونعرف في تاريخ اليونان حدثا له دلالته العميقة في مجال بحثنا هو ، محاكمة سقراط ،فما الجرم الذي ارتكبه سقراط؟

---

* هوميروس ،شاعر يوناني قديم عاش في القرن السادس قبل الميلاد

[1]– زكريا الفايد، العلمانية ، النشأة والأثر،ص69 الزهراء للإعلام ،القاهرة 1988.

*المدرسة الرواقية، مدرسة فلسفية انتشرت في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد كان زينون وكريسبوس أشهر دعاتها في القرنين 3و4 قبل الميلاد وقد قالت بالمواطنة العالمية وحددت دور العلوم على النحو التالي: فقالت أن المنطق هو النور وأن الفيزياء هي التربة الخصبة وأن الأخلاق هي ثمرتها، وأن المهمة الرئيسية للفلسفة مناطة بالأخلاق وقالت أن المعرفة ليست أكثر من وسيلة اكتساب الحكمة وأن الحياة يجب أن تعاش وفقا للطبيعة .

[2]– زكريا الفايد ، العلمانية ،النشأة والأثر ، ص:70

التهمة الموجهة ضده هي أنه لم يحترم ويقدر آلهة مدينته ولم يعبأ بهم وأراد إدخال قوى غير التي عرفها مجتمعه والكلمة محور التهمة تعني (ثمن، قدر، احترم).

إن سقراط لم يمتثل للرابط الديني لدى الجماعة، أي احترام الآلهة وتقديرهم فقد نادى بالمعرفة أساسا (وفي الفلسفة موت الالهة).[1]

وخلف اليونان الرومان وفاقوهم في القوة والتنظيم واتساع الدولة، ولكن لم يلحقوا بهم في العلم والفلسفة والآداب والشعر التي كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة ، فخضعوا لهم عمليا واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم.

والمجتمع الروماني لم يكن له دين موحد يتعبد به، ولا فلسفة واحدة يؤمن بها، فالطبقة الحاكمة كانت تشارك الشعب في أعياده الوثنية وتخدم تماثيل الالهة الكثيرة ومنها الإمبراطور نفسه الذي كان إلها يعبده الشعب ، أما الطبقة المثقفة فأشتات متفرقة منها أتباع المدرسة الرواقية الموغلة في التجريد والتصوف ومنها مريدو المدرسة الأبيقورية** المفرطة في المادية والحسيات ، ومدارس أخرى متأثرة بالفلسفات والوثنيات الإغريقية في تصوراتها وأفكارها، أما طبقة العامة من الشعب فهي بفطرتها تميل إلى التدين، لكن التناحر المزمن بين الالهة والصراع المرير بين الفلاسفة،افقداها الثقة في المعتقدات الدينية والفلسفة بجملتها، فآثرت الاستجابة لدواعي الهوى والانصياع إلى الملذات الجسدية والإغراق في المتع الحسية.[2]

وهكذا يظهر التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ في دينهم ،لأن النظام الديني الوثني الخرافي الذي كان سائدا في روما يقتضي بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان، فلم يكن للدين تأثير في أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها، بل كان تقليدا من التقاليد كانت السياسة تقتضي البقاء عليه ولو بالاسم.[3]

---

[1]– الدين في المجتمع العربي . مركز دراسات الوحدة العربية ، ص69،ط1 بيروت 1990.

**المدرسة الأبيقورية، نسبة الى أبيقور (341–270ق.م) فيلسوف مادي يوناني من فلاسفة العصر الهيليني وقد أحيا المذهب الذري لليوكيبوس وديمقريطس ، أما مذهبه الأخلاقي فيقوم على إسعاد الذات بلذة معنوية لا يعقبها ألم.

[2]– محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ، ص38–39–40 ترجمة د. عمر فروخ، ط2 ،دار العلم للملايين .

[3]– أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص233، دار الجيل ، بيروت1991.

وقد عبر (سيسرو) عن الانفصال العميق بين الدين ونظام الحياة العامة عند الرومان بقوله : (لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتا معناها أن الآلهة لا دخل لها في أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة).[1]

ويقول الراهب أوغسطين: (إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزءون بهم في دور التمثيل).[2]

ليس هذا فحسب ، بل إن (أبيقور) في (القرن 4 ق.م) ليعلن على الملأ دعوة علمانية صريحة فيقول : (إن الآلهة يعيشون حكماء سعداء، ويعظوننا بهذا المثال الذي يجب أن نسير على منواله، فلنعظمهم كمثل عليا يقتدون بها، غير أنه يجب علينا ألا نشغل أنفسنا بما يريدون منا فإنهم لا يريدون منا شيئا ،هم لا يعيروننا بالا فلنفعل نحوهم كما يفعلون نحونا)[3].

هذا التصور للآلهة تشترك مع أبيقور فيه الغالبية العظمى من الرومان ومن الطبيعي جدا أن ينشأ عن هذا التصور الخاطئ للإله، تصور خاطئ لمهمة الدين في الحياة وواجب المخلوق تجاه خالقه.

ولما كان الصراع هو التصور المشترك لطبيعة الحياة عند الرومان فقد كانوا يتصورون الآلهة وهي تتصارع في الفضاء كما يتصارع أبطالهم على الحلبة، وليس من شأن البطل أن يشرع للجمهور، بل كل همه أن يخرج من الحلبة ظافرا منصورا.

وهكذا كان للرومان دين، لكنه دين وجداني مجرد لا تأثير له في السلوك العملي ولا يفرض التزامات خلقية معينة ولا ينظم من شؤون الحياة شيئا.[4]

وهذا العرض التاريخي الموجز ، يبين بوضوح قلق الإنسان الغربي العميق من أي سلطة علوية، ورغبته الدفينة في إبعادها أو تزييفها، وهذا القلق لم يتوقف بل ساهم في

---

[1]– أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص233، دار الجيل ، بيروت1991 ص 232

[2]– ن.م، ص232.

[3]– المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، ادريه كرسون ، ترجمة عبد الحليم محمود، ص125–218 دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1946.

[4]– سفر الحوالي ، العلمانية ، ص55–56.

تأجيجه عوامل خارجية، ظهرت في القرون الوسطى، مهدت لولادة العلمانية وتمثلت بالخصوص في طبيعة الديانة النصرانية ،وعاشت أوربا لعدة قرون هي قرون العصور الوسطى ظروفا دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية سيئة، ساد فيها الظلام والانغلاق والتخلف سائر أنحاء هذه القارة، ونحن نعرض الى هذه الظروف والمعطيات لنبين إلى أي حد كانت مسؤولة عن ظهور العلمانية؟ ومن أي ناحية؟

I- الظروف الدينية:

عرفت أوربا الدين النصراني منذ القرن الأول الميلادي بوصفه عقيدة شرقية سامية واضطهد اليهود والرومان منذ البداية النصارى أتباع المسيح عليه السلام واستمر هذا الاضطهاد لمدة ثلاثة قرون شهد التاريخ خلالها أبشع حالات الاضطهاد والقتل والصلب للنصارى الأوائل* حتى احتضنت الدولة الرومانية وأباطرتها (الديانة المسيحية) في صورة بعيدة كل البعد عن الدعوة النصرانية الحقيقية التي جاء بها عيسى عليه السلام ولكنها صورة جديدة أفرزتها الاجتهادات الشخصية لرجال الدين بدعم ومساندة رجال السياسة فجاء مرسوم ميلان* (313)م معترفا بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية، وأدخل بذلك النصرانية إلى آفاق سياسة، فابتعدت كل البعد عن جوهرها الحقيقية التي دفعت الإمبراطور (قسطنطين) إلى هذا الإجراء كانت غامضة إلى الحد الذي آثار اهتمام العديد من الباحثين، والمؤرخين المهتمين بتاريخ الإمبراطورية إلا أنه كتب لهذا الدين الجديد الانتصار وبشكل حاسم على الأعداء الوثنيين حين أعتنقه الإمبراطور وكان على رأس الدولة وأعلنه دينا رسميا للإمبراطورية.

ويتساءل (ول ديورانت) في مؤلفه المشهور (قصة الحضارة):

* أعلن الأباطرة الرومان على المسيحيين حربا لا هوادة فيها ومن أبرز هؤلاء الأباطرة مكسمين وديكيوس وفاليريان ونيرون، وآخر ما تعرضت له المسيحية من اضطهاد حدث زمن دقلديانوس، انظر محمد أبو زهرة محاظرات في النصرانية ص32 ط4 مصر وأنظر كتاب تاريخ العالم فصل 21 جمع جون أ- هامرتن ، ترجمة إدارة الترجمة في مصر، وانظر أيضا، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية لإدوراد جيبون ج1 ص407 ترجمة محمد علي ابو درة بيروت ط1 ، وفي هذا الكتاب يعرض جيبون نماذج من الاضطهاد ويخصص فصلا لذلك يسميه (سياسة الحكومة الرومانية إزاء المسيحيين) ويذكر للتأكيد على ذلك صورا عديدة وارقاما هائلة تصور بشاعة هذا الاضطهاد.

هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصا* ؟ وهل أقدم على هذا العمل عن عقيدة دينية؟ أم هل كان هذا العمل خطة بارعة أملتها الظروف السياسية؟ ويجيب على أسئلته التي يطرحها، بأن هذا الرأي هو الصواب ويؤكد هذه المسألة بدليل الرسالة التي بعث بها قسطنطين إلى الأساقفة المسيحيين، فهو لم يكن يعنى بالمسائل اللاهوتية، التي تضطرب بها المسيحية، وكان لا يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية (فالمسيحية عنده كانت غاية ووسيلة) حيث كان يأمل أن يكون ملكا مطلق السلطان، وبدا له أن النظام الكهنوتي وسلطان الكنيسة هو الذي يؤسس له النظام الروحي ليناسب نظام حكمه.[1]

والأمر المثير في سلوك قسطنطين يدعو إلى التساؤل حول الأسباب التي دفعته إلى محاباة المسيحيين وهم أقلية مستضعفة .

يجيب المؤرخ الانجليزي (فيشر) عن ذلك بقوله: (لم يغب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قسطنطين، وأن اتخاذه الأولياء من فئة قليلة من الناس، يحدوها النظام، ويهديها الإيمان الراسخ وتسندها الكتب المقدسة وعقيدة واضحة أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى).[2] للمحافظة على وحدة الإمبراطورية في كافة المجالات خاصة المجال الديني منها، إذ رأى أن الخلافات المذهبية بين المجموعات كانت تتحكم في توجيه الموازين السياسية وتياراتها مما يؤدي إلى تغيير طبيعة النظام ويهدد وحدة الإمبراطورية، لهذا سعى إلى توحيد الصفوف، لكن المصادفة وحدها هي التي دفعت به إلى أن يصبح إمبراطورا مسيحيا في فترة انقسامات عنيفة، خلقت البلبلة والاضطراب.

* الحق أن الدارسين لم يختلفوا في شيء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين، فقد تناول الكثير منهم هذا الموضوع في دراسات مستفيضة وجاءت النتائج متضاربة وسبب ذلك يعود إلى التحيز الواضح في مصادر المسيحية التي تعظم هذا الإمبراطور على حساب أعدائه.

[1]– ول ديورانت ، قصة الحضارة م.3ج3 ص 388 ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، 1957.

[2]– أ–هـ– فيشر، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ج1 ، ص7 ترجمة مصطفى زيادة مصر 1966.

فبعد عشر سنوات من الصراع مع (الدوناتيين)* عانى الإمبراطور من (هلوسته الثانية) على حد تعبير نورمان** الذي كان أكثر خطورة من الجدل الدوناتي ، لأن (دوناتس) قسم إفريقية وحدها بينما قسم (آريوس)*** الإمبراطورية كلها، ونتيجة لرغبة قسطنطين ولضمان سيادته على العرش وضمان حكمه المطلق على أرجاء الإمبراطورية رأى ضرورة التدخل لفهم هذا الجدل وحسمه حتى لا يؤثر على وحدة الدولة وتضامنها.

قرر الإمبراطور حسم الأمر في أول مجمع (مسكوني)(Ecumenical) موسع كما قرر أن يكون مكان انعقاده مدينة نيقية**** واشتهر هذا المجمع بصدور قانون (الإيمان النيقاوي)***** نسبة الى نيقية صاغه يوسيبيوس****** وأضاف عليه قسطنطين ما يريد.

يقول برنتن : (إن المسيحية الظافرة في مجلس نيقية، العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم، مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الخليل ، ولو أن المرء

---

* الدوناتيون أتباع حركة دينية اتخذت من (دوناتس) اسمها ومبادئها القائمة على وجوب تقديس الشهداء وإنزال العقوبة على المرتدين عن المسيحية زمن الاضطهادات السابقة لقسطنطين ثم اختلطت هذه الحركة التي ترجع إلى أوائل (ق4) بروح الانفصالية عن الإمبراطورية وأول مجمع كنسي عقد في تاريخ الإمبراطورية والكنيسة عام (313) هو مجمع (آرل) (Arles) كان لمناقشة قضية الدوناتيين.

** هو هنا يستخدم تعبير قسطنطين ذاته في رسالته حول الدوناتية والتي جاءت في كتاب يوسيبوس ، حياة قسطنطين (Vita Costantina) ، انظر كتاب سالمة عبد الجبار ،الدين والسياسة ص11

*** الأريوسية نسبة إلى آريوس ،كان لها أكبر الأثر منذ منتصف (ق4) والإطار العام للدعوة الآريوسية المحافظة على كمال (الله) الأب، وإعطاء قدسية ومكانة خاصة للمسيح بتميزه عن غيره مع رفض كونه إلها وجميع مصادر التاريخ الكنسي تتحدث عن أريوس وحركته الدينية باعتبارها هرطقة أسهمت في الانشقاق الديني فوجب القضاء عليها ومجابهتها بالقوة .

**** مدينة نيقية Nicea في بثينا Bythina مكانها الآن أرنيك التركية اختارها الإمبراطور لموقعها الهام في الإمبراطورية حتى يتمكن كل أساقفة إيطاليا وكنائس أوربة من حضور المجمع ولملائمة مناخها وحتى يكون هو نفسه على مقربة منهم لمتابعتهم والاشتراك في نقاشاتهم، تلك هي الأسباب التي يقدمها قسطنطين ذاته لتبيان أسباب اختيار هذه المدينة ويرسلها مع دعوى لكل الأساقفة ويقدمها يوسيبيوس في تاريخه الكنسي مؤلفه عن حياة قسطنطين.

***** نشير هنا إلى أن هذه القوانين شكلت الصياغة العامة للعقيدة المسيحية إلى جانب أن بعضها كان متعلقا بقضايا تمس بعض المراسيم المسيحية مثل (تاريخ عيد القيامة) حين أعلن أن الأحد هو اليوم المقدس كما تقرر في هذا القانون بعض القضايا المتعلقة بالجانب الإداري للكنيسة .

****** يوسيبيوس يعرف باسم يوسيبيوس القيصري المنظر اللاهوتي الأول والأكبر للامبراطورية المسيحية في عهد قسطنطين، كان أسقف قيصرية فلسطين وهو مفسر ومؤرخ كبير للعصور المسيحية القديمة من كتبه (التقويم)، (التاريخ الكنسي)(وحياة قسطنطين).

اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعا لا، لأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب، بل لأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا.[1]

أما المؤرخ الإنجليزي (ويلز) فيقول : (من الضروري أن نستلفت نظر القارئ الى الفروق العميقة بين مسيحية نيقية التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصري، فمن الواضح تماما أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبسا عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر وطقوس، وكان قربانها قلبا كسيرا خاشعا، وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ وكان رأس ما لديها من العمل هو الموعظة، بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل، كنواة لها كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس منذ آلاف السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان الذي يقربه قديس متكرس للقداس، ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة ،والقساوسة والأساقفة، ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل (سيرابيس) أو (آمون) أو (بعل مزدك) مشابه غير عادية ،فلا بد أن نذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها.[2]

وتجدر الإشارة أن رأي العلماء الباحثين الذي تم ذكره يتماشى مع رأي رجال الدين في الأمر ويقول وليام تامبل أسقف كنيسة (كنتربري) وحبر أحبار انجلترا: (إن من الخطأ الفاحش أن تظن أن الله وحده هو الذي يقدم الديانة أو القسط الأكبر منها).[3]

وهو تبصير صريح عن عقيدة الكنيسة وواقع تاريخها.

لقد أدى التحريف المتعمد لنصوص الوحي المسيحي والتأويلات البعيدة لأعمال المسيح وأقواله، تلك التي فتحت لها الكنيسة الباب على مصراعيه إلى استمرار وتسويغ التصرفات الخاطئة التي ثلت فيما بعد، ولما كانت تحريفات الكنيسة تخبطات عشوائية لا

---

[1]– جرين برنتن (أفكار ورجال– قصة الفكر الغربي) ترجمة محمود محمود مصر 1965 ، ص:141

[2]– هـ– ج ويلز (معالم تاريخ الإنسانية) ص:232 ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد القاهرة 1967

[3]– محمد علي يوسف ، الجفوة المفتعلة بين العلم والإيمان ، ص:11 بيروت 1966.

ترتكز على قواعد محددة وليس لها ضوابط رادعة، فلقد ظل المجال فيها لإضافات أكثر يضاف إلى ذلك الحماقات التي ترتكب بطريق السذاجة والبله من بعض المنتسبين إلى الدين ولا تجد من ينكرها أو يحاصرها فتصبح مع مرور الزمن طقوسا وشعائر دينية، كل ذلك تعرضت له النصرانية فاستحقت أن توصم بأنها ديانة تركيبية أو بوتقة انصهر فيها عقائد وخرافات وآراء متباينة، شكلت دينا غير متسق ولا متجانس.[1]

وزيادة في التوضيح نذكر بعضها من التحريفات التي تعرضت لها المسيحية وأقرتها الكنيسة فكانت بمثابة جناية في حق الشعوب الأوربية .

أولا: تحريف العقيدة ويتمثل في:

أ- قضية الألوهية:

تعرضت النصرانية بشكل عام لمجموعة من الأحداث ، أسهمت في تبديل النصوص وتحريف الأسس العامة لهذه الديانة، فقد نزل بالنصارى الأوائل من البلايا والكوارث على أيدي أعدائهم خلال القرون الثلاثة الأولى، ما جعل بعضهم يهجر هذا الدين ويتنكر له، وجعل بعضهم يخفيه في نفسه ويفر به مهاجرا الى أمم أخرى ومنهم من كان يثبت أمام الكوارث المحيطة به ويهجر بعقيدته في وجه أعدائها مستهينا بما يجلبه عليه ذلك من التعذيب.[2]

وبذا لم تكن تعاليم عيسى قادرة على الظهور في مثل هذه الفترة العصبية فكان كتابها يغلفونها بأغلفة من الكنايات والثوريات، وما الى ذلك من الرمزيات التي عقدت هذه التعاليم الواضحة ، وجعلتها أشبه بالطلاسم يصعب على العقل فهمها وكانوا تارة أخرى يضعون هذه التعاليم في تفسيرات وإضافات أخذوا معظمها من الفلسفة والأفكار المعاصرة لهم مما أدى إلى مسخ هذه التعاليم وتشويه الكثير من حقائقها.[3]

---

[1]- سفر الحوالي ، العلمانية ، بتصرف.

[2]- الهندي رحمة الله ، إظهار الحق ، تحقيق عمر الدسوقي المكتبة العصرية ، بيروت ،ج 2، ص:15.

[3] سالمة عبد الجبار ، الدين والسياسة ، ص:20-21

ولفهم التطور الفكري الذي صاحب العقيدة المسيحية وابتعادها عن التوحيد وحقيقة التثليث وأصوله الأولى في النصرانية لابد من تسليط الضوء على بولس* هذه الشخصية التي تمثل دورا أساسيا وجوهريا في تطور النصرانية وتحولها ودخولها مرحلة التثليث، حيث كانت رحلته التاريخية ودعواه رؤية المسيح والتبشير منذ ذلك بجملة من العقائد الطارئة على المسيحية، وهي التي صارت بمرور الزمن من العقائد الأصلية في صلب دعوة المسيحية مما دعا الباحثين الى اعتبار بولس هو (مؤسس المسيحية الحاضرة).[1]

ومن خلال دراسة الأجواء الفكرية والحالة الدينية لبيئة بولس المشبعة بهذه الأفكار والطقوس والتصورات التي صاغها وحاول أن يعلن عنها في نسق مقبولة اعتبرتها الكنيسة في مراحلها اللاحقة من الأسرار المقدسة التي تحفظ لها اعتبارها لدى العامة وتواجه بها نقد الخاصة.[2]

ولابد من الإشارة إلى أن ما وضعه بولس من إضافات إنما كانت له أصول في الأفكار التي كانت سائدة عند الرومان ومنها ما كان لها علاقة بالاتجاه السياسي فقد دعا بولس الأرقاء إلى البقاء في قيد العبودية إلى الأبد والاستسلام والخضوع للسلاطين لأنهم يستمدون سلطانهم من الله.[3]

---

* بولس : ورد في أعمال الرسل تفصيل لحياة بولس ،فهو من أشهر رجال التاريخ النصراني ولد في طرسوس بآسية الصغرى اسمه الأصلي (شاؤول) روماني الجنسية، نشأ نشأة يهودية متحمسا لنشأته (أعمال الرسل 23:6) وكان متمسكا بالتقاليد الفريسية ،سفر غلاطية (13:1-14) وأعمال الرسل (8:3،7:6، 9، 1-4) كان في البداية يضطهد النصارى ومكلفا من قبل الكنست اليهودي لمقاومة النصارى عام 53م ، ثم في طريقة رأى نورا ساطعا وسمع صوتا يقول : شاؤول لم تضطهدني ؟ فقال : من أنت ،قال : أنا يسوع الذي تضطهده.

وعندما ذهب إلى دمشق وانخرط في سلك النصارى (أعمال الرسل(1:9-3،19-21، 9:26-23) سمى نفسه بولس وطاف مع بعض رفاقه العالم اليوناني واستمد ثقافته من مصادر أجنبية ودعا إلى مبادئ ليست من صميم دعوة عيسى وتتلخص آراؤه في الرسائل التي بعث بها إلى ما أنشأه من كنائس ويعتبر النصارى المحدثون هذه الرسائل جزءا من الكتاب المقدس.

[1]- ول ديوارانت: قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب وآخرون ، لجنة التأليف والنشر ،القاهرة 1968 ج3 م3ص:257.

[2]- سالمة عبد الجبار ، الدين والسياسة ، ص22.

[3]- رسالة بولس إلى إفسوس6:5 ورسالته الأولى إلى تيموتاوس 6-1.

ومن هنا وجد بولس سندا قويا من حكام روما وولاتها وسادتها، وبذلك تركته السلطات الرومانية يبشر بدعوته، مادامت تقضي بمضاعفة العبيد لجهودهم في خدمة أسيادهم لقد كان خليقا بروما أن تبقي على فيلسوف طيع إلى هذا الحد[1].

وبذلك أصبحت كلماته (كتابا مقدسا) وصارت رسائله ذات حرمة وتقديس مثلما للإنجيل من تقديس وتعظيم ، وتناولها الشراح والدارسون من علماء الكنيسة ورجال اللاهوت بكل ما يملكونه من طاقات البحث والنظر وأخرجوها في ذلك الشكل فكانت منها تلك الفلسفة اللاهوتية التي شغلت العقل المسيحي.[2]

ودخلت دعوته في أخص خصائص اللاهوت المسيحي حيث لا نجد في لاهوت بولس أي سند إلا بعض الأقوال الغامضة . أشد الغموض في أقوال المسيح وهو في ذلك إنما كان متأثرا بالأفلوطينية والرواقية إلى جانب سيطرة الأفكار اليهودية والدينية في مسائل متعددة*

وحين ننظر إلى ملكات بولس العامة في التبشير حسب أساليب يونانية ورومانية وبعقيدة يهودية الأصل ، نجد أنه كان في وضع يلاءم تحقيق عمله كل الملائمة إذ هو نما في بيئة تسيطر فيها الروح الفلسفية اليونانية ، وجاءت رسائله تشهد بمعرفة للنصوص المقدسة كما هي عند علماء اليهود الفريسيين.[3]

كما أن تمتعه بالجنسية الرومانية ساهم في حمايته من التعصب، ودعوته إلى عالمية الديانة وبداية التبشير بها من بني إسرائيل إلى مناطق العالم الأخرى[4] .

وهكذا كان حرص بولس على نشر دعوته والتعريف بها، فنقل دعوته من الأرض التي كان يعيش بها اليهود إلى الشعوب الوثنية الأخرى كالرومان واليونان وبذلك سعى بولس الى تطعيم المسيحية ببعض الطقوس والعادات والشعائر التي وجدها في تلك

---

[1]– جينيز شارل، المسيحية ، نشأتها وتطورها ،المكتبة العصرية بيروت ، ترجمة عبد الحليم محمود ص: 118

[2]– سالمة عبد الجبار ، الدين والسياسة ، ص21–22

* من أهم تلك المسائل اللاهوتية (مسألة التضحية والفداء للتفكير) وسنعرض لها في الصفحات الموالية

[3]– رسالة بولس 5: 12– 14, 8: 1–4.

[4]– إنجيل يوحنا الاصحاح الثالث 16–17.

الشعوب ، فكان أن تأثرت المسيحية بالأفكار الدينية السائدة خاصة ما يسمى بالفكرة الإلهية (الثالوث المقدس)، عند المصريين القدماء، كما تأثرت بالثالوث المقدس البابلي والهندي واليوناني إلى جانب تأثيرات كافة العقائد الوثنية المنتشرة في العالم في تلك الفترة، ونشير هنا إلى أن كافة الأبحاث الدينية المأخوذة من مصادر شرقية لم تخل من ذكر التثليث بل لقد كانت تلك الأمم الوثنية تدين بالوثنية ، وتدين بالجانب ألثالوثي بشكل خاص، وكان عند أكثر الأمم الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي أي أن الله ذو ثلاثة أقانيم.[1]

ونلاحظ في هذا السياق أن معاصري بولس لم يشعروا بأثره مباشرة، فالجماعات التي أنشأها كانت أشبه بجزر صغيرة في بحور الوثنية الواسعة، وظل بولس قرابة مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره أحد فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين الشفهية، ضعفت ذكراها في الأذهان وأخذ العقل المسيحي يضطرب بمئات من عقائد الزيغ والضلال وأصبحت رسائل بولس إطارا لمجموعة من العقائد أضفت على الجماعات المتفرقة اتزانا وألفت منها كنيسة واحدة قوية، وأضاف بذلك إلى اللاهوت الشعبي العديد من الآراء الصوفية الغامضة التي كانت قد ذاعت بين الناس حول المسائل الدينية[2] وكان مع ذلك في العديد من رسائله يصرح بأن الإنجيل الجيد الذي يبشر به ليس هو إنجيل عيسى بل هو إنجيل تلقاه بإلهام المسيح يقول ما نصه: (أعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرت به إنه ليس بحسب إنسان لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح[3].

ومع ذلك استمرت آراؤه لسهولة تقبلها وارتباطها بالفلسفة السائدة، وعندما لاحظ الأباطرة الرومان منذ بدايات القرن الرابع الميلادي اهتزاز كيان الدولة فكروا في مدى التأثير الضخم الذي يمكن أن يحصلوا عليه من المسيحيين ويسندوا به تداعي الدولة، لذلك

[1]– التنير محمد طاهر ، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ، ص30. 1912.

[2]– سفر غلاطية الأول: 11–12

[3]– سالمة عبد الجبار ، الدين والسياسة ص24.

جاء مرسوم ميلانو للاعتراف بالمسيحية كما عرض لها بولس وكما هي سائدة عند شعوب الرومان واليونان.[1]

والأمر الذي ساعد على انتشار هذه الدعوة وشيوع أفكارها رغم خلافها للنصرانية الحقيقية تلك الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون حيث دمرت كتبهم وآثارهم وهدمت بيوتهم وأماكنهم المقدسة واعتبروا مدنسين وأسقطت حقوقهم المدنية واستشهد منهم الكثير، بعد أن مزقت أجسادهم بالسياط وأحرقت بالنار[2].

ب- وراثة الخطيئة وخرافة الفداء:

تعتبر هذه العقيدة إحدى التعاليم الكبرى في المسيحية المحرفة وموجزها أن آدم عليه السلام ، أكل من الشجرة، (شجرة المعرفة) فعاقبه الله بالطرد من الجنة،وأسكنه التراب وظل الجنس البشري يرسف في أغلال تلك الخطيئة أحقابا ، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغير سيئات البشر، ولم يكن من طريق يجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله ووحيده وقبوله أن يظهر في شكل الإنسان وأن يعيش كما يعيش الإنسان، ثم يصلب ظلما، فيكفر عن خطيئة البشر.[3]

يقول ول ديورانت- المسيحي المعروف وهو يكتب عن مصادر مسيحية بولس ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية، سنة التضحية الفدائية للتفكير عن خطايا العالم ، أما هذه الأسس فأهمها : أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلا بموت ابن الله ، ليكفر بموته عن خطيئته)[4].

ويذكر مترجمو قصة الحضارة في هامش الصفحة المشار إليها أن اليهود يشتركون مع المؤابيين والفنيقيين والقرطاجيين في عادة التضحية بطفل محبوب لاسترضاء السماء الغضبى ثم أصبح بالإمكان على توالي الأيام أن يستبدل الطفل بمجرم وكان البابليون يلبسون هذه التضحية أثوابا ملكية لكي يمثل بها، ابن الملك، وفكرة التضحية كانت أكثر

---

[1]- إدوارد جيبون ، اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ص407

[2]- أحمد شلبي ، المسيحية مجلد 2 ص127-128، القاهرة -1965

[3]- ول ديوارنت ، قصة الحضارة 11 ص250.

[4]- ول ديورانت ، قصة الحضارة 11 ص250.

قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود، وقد كانت آلهة مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان تؤمن بآلهة مثل (أوزيريس) و(ديونيس) التي ماتت لتفتدي الإنسان وكان لفظ (Kyrios) الذي سمى به المسيح اللفظ الذي يطلق في الطقوس اليونانية على (ديونيس) الميت المفتدى.[1]

والنص لا يصمد أمام الانتقادات ،بحيث تطرح عقيدة الكنيسة في صلب المسيح ورواية الأناجيل لأسطورة الصلب علامات استفهام كثيرة منها.

إذا كان عيسى إلها، فلماذا رضي بالقتل؟ وكان جواب بولس هو الذي يردده البعض الآن(إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذي استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم فكان لابد أن يموت ليحطم أغلال الموت ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله).[2]

ثم إن خطيئة فكرية ترتكبها الكنيسة عندما تزعم أن المسيح مات من أجل خطايا العالم بهذا التعميم مع أن نظرة سريعة لما يجري في العالم قديما وحديثا يظهر أن الجريمة والخطيئة على أبشع الصور، وآلمها مازالت قائمة في البشر ولم تخل أمة من أمم الأرض من المعصية والكفر ولم تمنع مسرحية الصلب والفداء شيئا من ذلك. والكنيسة بهذه الفلسفة الخاطئة تشجع على الجريمة والمجرمين وتدعو إلى الإثم والفواحش[3]. ويشك المؤرخ الإنجليزي (ويلز) في مشروعية الكفارة والفداء ويقول : (من العسير أن تجد أية كلمة تنسب فعلا إلى عيسى فسر فيها مبادئ الكفارة والفداء أو حض أتباعه على تقديم القرابين أو اصطناع عشاء رباني).[4]

---

[1]– الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي عبد العظيم المطعني ص:207.

[2]– الاسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، عبد العظيم المطعني ص:207.

[3]– أصول ، النصرانية في الميزان، د. محمد سيد أحمد المسير، ط1، مكتبة الصفا 1998 ، ص:18.

[4]– ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ،ج3، ص: 246.

أما (فوليتر) فيرفض الخطيئة الأولى ويعتبرها إهانة لله واتهاما له بالبربرية والتناقض وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال وعذبها لأن آباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته.[1]

ثانيا: البدع المستحدثة في الديانة النصرانية:

سبق أن تحدثنا عن تحريف المسيحية عقيدة، والتحريف في حد ذاته بدعة خطيرة، لكن الأمر لم يقتصر على تحريف ما هو موجود بل انتقل إلى إحداث ما لم يكن وابتداع تعاليم وضعية ألصقت بالمسيحية وأدخلت في صلبها، وربما كانت بدعة رجال الدين كما يسمون، أبعد البدع أثرا لأن البدع الأخرى لم تكن لتنمو لولا أن رجال الدين هم الذين ابتدعوها وأقروها وأضفوا الشرعية عليها .

لذلك سنبدأ بالحديث عن هذه البدعة ثم نعقب البدع الأخرى لتكون نماذج حية شاهدة على مدى التحريف الذي أصاب الديانة المسيحية.

أ- رجال الدين الإكليروس:

يقول المؤرخ الانجليزي ويلز في معرض الحديث عن الفرق بين مسيحية المسيح ومسيحية الكنيسة، كما سبق : (أن تعاليم يسوع الناصري، تعاليم نبوية- من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية ، ولم يكن لها معبد مقدس حبسا عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس، وكان قربانها قلبا كبيرا خاشعا وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة، بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل (كنواة لها) كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان الذي يقره قسيس متكرس للقداس ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقسامسة والأساقفة).[2]

---

[1]- سلسلة ثرات الإنسانية مجموعة من الأساتذة مجلد 8 ص 78-80 الهيئة العامة للكتاب في مصر.

[2]- ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ج3، ص:720.

وكان من الأسس الباطلة التي بنى عليها رجال الدين مبررات وجودهم مبدأ(التوسط بين الله والخلق) الذي يقتضي ، بألا يذهب الإنسان إلى رجل الدين ليعلمه كيف يعبد الله ، بل ليعبد الله بواسطته، وليس للمذنب أن يتجه إلى الله طالبا الصفح والمغفرة بل عليه أن يتجه إلى رجل الدين معترفا أمامه بذنبه ليقوم بالتوسط لدى الله فيغفر له، وحسب هذا المبدأ نصب رجال الدين أنفسهم أندادا لله وأوقعوا أتباعهم في الشرك الأكبر.[1]

وقد ترتب على هذا المبدأ آثار سيئة للغاية،منها احتكار رجال الدين لحق قراءة وتفسير الإنجيل ثم مهزلة صكوك الغفران ، وكذلك الانشقاقات الدينية المتوالية التي دمرت الحياة بصفة عامة، وأخيرا كان هذا المبدأ إحدى الحجج التي سلها ملاحدة القرن السابع فيها بعد في وجه الأديان والمسيحية خاصة.*

ب- الرهبانية:

اشتطت الكنيسة وغلت في تصورها للفضيلة والخلق الرفيع ووضعت لها الشروط والمواصفات التي تنوء بالجهد البشري ولا يستطيع استكمالها عدا الملائكة إلا حفنة ضئيلة من البشر تتمتع بمزايا غير عادية ولا يصح أن تتخذ مقياسا لسائر بني الإنسان.[2]

فالعفة أولا مثلا- خلق إنساني نبيل فطرت عليه البشرية ودعت إليه الأديان كافة لكن الكنيسة بالغت في تصورها لهذا الخلق الرفيع حتى حرمت ما أحل الله، وأنكرت ما تلح عليه الفطرة وتدعو إليه الغاية من الوجود الإنساني وذلك بابتداعها الرهبانية وتنفيرها الشديد من المرآة لذاتها، فتعاليمها تقول عن النظر المجرد(إذا نظرت عينيك الى معصية فاقلعها فإنه خير لك أن تفقد عضوا من أعضائك من أن يلقي جسدك كله في النار).

وانطلاقا من ذلك حرمت الزواج على رجال الدين معتقدة أن رجل الدين لا يجوز له أن يهبط الى مستوى أخلاق الشعب ويشاركهم في الاستمتاع الدنس.[3]

---

[1]- سفر الحوالي ، العلمانية ، ص:80-81

* سيأتي تفصيل هذه الأمور في أبوابها.

[2]- سفر الحوالي، العلمانية ، ص:80-81.

[3]-ن.م ص: 362-363.

وقد جن جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني وتخطى حدود القياس ، حيث لم يقتصر الأمر على ما ذكر بل كما هي طبيعة البدع- تجاوز ذلك الى تصرفات تشمئز لها الفطر السليمة ، ابتدعها بعض الرهبان ليعبروا عن قوة إيمانهم وعمق إخلاصهم لمبدئهم .

يقول ابو الحسن الندوي: (وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع لقرض جسمه العاري الذباب السام وكان يحمل دائما قنطارا من حديد وكان صاحبه الراهب يوسيبيوس يحمل نحو قنطارين من حديد وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزيح وقد عبر الراهب يوحنا ثلاثة سنين قائما على رجل واحد ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة فإذا تعب أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد عندهم واتقاهم أبعدهم عن الطهارة و أوغلهم في النجاسات والدنس.[1]

ولم تكن الرهبانية والنظام الديني إلا مصادمة للفطرة وأدى التزمت والغلو في الدين إلى نتائج عكسية فمن جهة السلوك تلطخت سيرة رجال الكنيسة وأعضاء الأديرة برذائل وأنجاس يترفع عنها الفرد العادي ويتستر عليها الفاجر البذيء، أي أنها في الوقت الذي تحلق فيه تعاليمها في السماء، نجد أن واقعها يتخبط في الوحل فقد كانت الأديرة مباءات للفجور ومواخير للدعارة وكان للباباوات والقساوسة من العشيقات والحضايا ما يكون لدى الملوك الدنيويين .

وتولى منصب البابوية عدد من الأبناء غير الشرعيين لبعض الإباء والكرادلة وتلك الحقائق لم تكن خافية على الشعب بل كانت حديث الألسنة ومثار الجدل.[2]

[1]- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ،ص:240.

[2]- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ج14/375-380.

ج- الأسرار المقدسة:

للكنيسة عند رؤساء وآبائها وكهنتها وأتباعها ،أسرار معمول بها في كل مجمع كنسي مثل التعميد واستمرار التعميد، والزيت المقدس والزواج المقدس والعشاء الرباني والكفارة ، وهذه الأسرار هي مورد تمويل الكنيسة وسدنتها، والسلم الذي يصعد عليه الكهنة على رقاب الأتباع ويسيطرون على ضمائرهم وعقولهم، وكثيرا ما دارت بسبب هذه الأسرار معارك فكرية.

ورجال الدين المسيحي يقدمون أرواحهم فداءا لهذه الأسرار لأنها إذا زالت تهدمت الكنائس وذهب سلطانها وسلطانهم من الوجود[1].

والأسرار المقدسة هي كما عرفها القديس أوغسطين (ت449): (المظاهر الخارجية لأفعال مخصوصة وتجسد نعمة إلهية خفية ومستورة، وأنها بذاتها مجلبة للنعمة بذاتها، من حيث أنها أفعال صدرت بداية عن السيد المسيح فهي إذن ليست مجرد طقوس بل هي أسرار دينية مقدسة، لها قدسيتها عند أتباع الكنيستين الكاثوليكية (اللاتينية الرومانية الغربية) والكنيسة الأرثوذكسية(الإغريقية الشرقية) وعددها سبعة أسرار هي: التعميد، المعمودية، عشاء الرب، تكريس التعميد، التوبة، الغفران ، رسامة الكهنوت المقدس، نظام الزواج المقدس، المسح بذهن الزيت المقدس على المريض والمشرف على الموت)[2] والمعروف عند مؤرخي الأديان أن الأفعال الدالة على معاني سرية خفية مقدسة، وتجسد رموز الأفعال الدينية المتعددة تقليد جد قديم في التاريخ.

أما في المسيحية، فإن هذه الأسرار وتحت تأثير القديس بولس وخليفته الهلينستية عادت من جديد فاصطبغت بالسرية والمعاني الخفية المستمدة من الديانات الضلامية والهلينستية[3].

ومن أسرار الطقوس سنكتف بمناقشة سر واحد هو سر العشاء الرباني ليكون نموذجا لبقيتها.

---

[1]-عبد العظيم المطعني ، الاسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ص 300.

[2]- عرفات عبد الحميد فتاح، النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها ط: 1، دار عمان للنشر والتوزيع ،ص:114

[3]- ن.م، ص:117.

العشاء الرباني:

العشاء الرباني من أسرار الكنيسة السبعة، وكان أول من دعا إليه بولس فجاء في رسالته الى أهل كورنثوس: (إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها(قتل) أخذ خبزا وشكر فكسره وقال: (هذا هو جسدي إنه لأجلكم، اعملوا هذا لذكري) ثم يقول بولس: وكذلك أخذ الكأس بعد العشاء وقال، (هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، كلما شربتم فأعملوا هذا لذكري) فأنتم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء فمن أكل خبز الرب أو شرب كأسه وما كان أهلا لهما خطئ إلى جسد الرب ودمه).[1]

ولم تقف البدعة عند هذا الحد، بل أضافت الكنيسة إلى ذلك ، العقيدة المعروفة بعقيدة التحول أو الاستحالة وهي وجوب الاعتقاد بأن متناولي العشاء يأكلون جسد المسيح بعينيه ويشربون دمه نفسه على الحقيقة أيضا، أما كيف يتحول الخبز والخمر اللذان يرمزان الى جسد ودم المسيح ، فإذا ذلك سر لا يجوز لأحد أن يسأل أو يشكك فيه وإلا عوقب بالحرمان والطرد من الملكوت.[2]

وقد كانت مسألة الاستحالة من الثغرات التي فتحت على الكنيسة ، *ولم تستطع* لها سدا بما سبب من انشقاقات دينية ونقد مرير من المؤرخين فسخروا من هذا الطقس أعظم سخرية، وكان من روادهم الفيلسوف الفرنسي فولتير الذي قال : (وظاهر أن عقيدة الاستحالة مما لا يتردد العقل في إنكاره ونبذه إذ لا يستطيع عقل سليم أن يتصور استحالة خبز وخمر الى لحم ودم، في حين أن الآكلين يتذوقون طعم الخبز والخمر ثم إن جسد المسيح واحد وموائد العشاء تعد بالآلاف سنويا وفي أماكن متفرقة فكيف يتفرق جسده ودمه عليها جميعا.[3]

---

[1]– رسالة كورنثوس الأولى (11، 25، 26، 27)

[2]– عبد العظيم المطعني ، الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ص:117.

[3]– فيشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ج2، ص 362.

د- مسألة الغفران:

توجت الكنيسة تصرفاتها الشاذة وبدعها الضالة بمهزلة لم يعرف تاريخ الأديان لها مثيلا وتلك هي توزيع الجنة وعرضها للبيع في مزاد علني وكتابة وثائق للمشترين ، تتعهد الكنيسة فيها بأن تضمن للمشتري غفران ما تقدم من ذنبه ما تأخر وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة أو لاحقة.[1]

ومسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسيء في الدنيا ، قررته الكنيسة حقا لنفسها في المجمع الثاني عشر، وهو المجمع المسمى باللاتيراني الرابع المنعقد عام (1251).

وقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار المجمع في هذا الشأن : (أنهى المجمع فيما يتعلق بالغفران ، فقال: إن يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفران، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى، قد أعلم المجمع المقدس وأمر بأن يحفظ في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي المثبتة بسلطان المجامع).[2]

(ثم ضرب بسيف من يزعمون أن الغفران غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها ،غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراس حسب العادة المحفوظة قديما، والمثبتة في الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بفرط التساهل)[3].

ولقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران ، بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق في الغفران والشخص قوي يستقبل الحياة ولا يودعها ويقبل على متعها ولا يدبر عنها، وغالت فجعلت لنفسها حق غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب ثم أغرقت في المغالاة فاتخذها رجال الدين من أبواب الكسب للكنيسة .

---

[1]- سفر الحوالي ، العلمانية 110.

[2]- محمد ابو زهرة ، في النصرانية ، ص: 157.

[3]- ن.م، ص:157.

ولقد أتى حين من الدهر من بعد ما أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق أن أفرطوا في استعماله إفراط شديدا وأنشأوا له صكوكا تباع وتشترى فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا ومتعة من متعها وبذل العصاة في سبيلها المال وما كان عليهم من حرج في أن يرتكبوا ما شاء من الموبقات وينالون ما تهوى الأنفس من معاصي مادام ذلك يفتدى بما قل وجل.[1]

يقول الراهب (جروم)، (Jarum) : (انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما واستحوذ عليهم الشجع وحب المال وتعدوا طورهم، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع وقد تباع بالمزاد العلني، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر كأوراق النقد وطوابع البريد، ويرتشون ويواربون وقد بذروا المال تبذيرا، حتى اضطر البابا (أنوفست الثامن) من أن يرهن تاج البابوية ، ويذكر عن البابا ليوا العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيبه ودخله وأخذ إيراد خليفته المرتقب وأنفقه ويروي أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم.[2]

II – الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل الطغيان الكنسي:

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك مارست الكنيسة (ومنذ أن ظهر إلى الوجود ما يسمى المسيحية الرسمية في مجمع نيقية325)الطغيان الديني والإرهاب في أبشع صوره ، ففرضت بطغيانها هذا عقيدة التثليث قهرا وحرمت ولعنت مخالفيها ، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين، وأذاقتهم صنوف التعذيب وألوان النكال ونصبت نفسها عن طريق المجامع المقدسة إلها يحل ويحرم، ينسخ ويضيف وليس لأحد حق الاعتراض أو على الأقل حق إبداء الرأي، كائنا من كان وإلا فالحرمان مصيره واللعنة عقوبته لأنه كافر مهرطق.

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية ، بإدعاء حقوق لا يملكها إلا الله مثل حق الغفران ، ولم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها.

[1]– محمد سيد أحمد المسير ، الأصول النصرانية في الميزان ،ط:1، مكتبة الصفا، ص27.

[2]– أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص:246.

ولم تدع الكنيسة جانبا من جوانب الحياة دون أن تمسكه بيد من حديد وتغله بقيودها العاتية فهيمنت على المجتمع في كل نواحيه الدنيوية والسياسية والاقتصادية والعلمية وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم وصاية لا نظير لها البتة. والتاريخ ليفيض في الحديث عن طغيان الكنيسة ويقدم نماذج حية في كل شأن من الشؤون ، وسنستعرض شيئا من ذلك في نواحي مختلفة من الحياة:

أولا: الظروف السياسية:

لم تطبق الشريعة المسيحية في عالم الواقع ، على أن إقصاء الشريعة المسيحية عن واقع الحياة، لايعني أنها كانت عديمة التأثير في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية فضلا عن السلوك الشخصي للحكام المسيحيين.

وكان للمسيحية آراؤها السياسية التي يمكن أن يستخلص من مجموعها (نظرية سياسية) تعبر عن وجهة نظرها الذاتية وإن كانت طبعا- لا تعبر- عن أحكام الدين كما أنزل الله تعالى.

وعلى الرغم من قصور النظرية الكنسية وعجزها عن تنظيم شؤون الحياة بسبب تحريفها وإهمالها لشريعة الله ونظرتها الخاطئة إلى الحياة الدنيا وإيمانها بقاعدة أعط ما لقيصر وما لله لله بالمدلول الخاص لهذه العبارة على الرغم من ذلك فقد كان الملوك والأباطرة في القرون الوسطى يخضعون في صورة ما لرجال الدين ولا يعدون أنفسهم مسيحيين فحسب بل جنودا للمسيحية كما حدث في الحروب الصليبية.[1]

والخطأ الفادح جاء من قبل الكنيسة إذ وجهت واستغلت عواطفهم الدينية لخدمة مصالحها الذاتية وجهدت في إخضاعهم لا لشريعة الله بل لأهواء البابوات .

وكانت ضرورات العمل السياسي كما يدعون تلجئهم الى مخالفة الروح المسيحية فينكثون بالعهود ويزهقون أرواح الأبرياء ويستبيحون الكذب والموارية في سبيل تحقيق مصالحهم السياسية.[2]

[1]- سفر الحوالي، العلمانية ، ص209-210

[2]- ن.م، ص211.

وأول البابوات الذي أعطى لنفسه حق استعمال (الوسائل الزمنية) لتحقيق (غايات روحية) هو الباب غريغوريوس السابع* (1020-1058)، فلقد حرم هنري الرابع ملك جرمانيا وخلعه من منصبه طالبا من رعاياه عدم الطاعة له واعتبر أن الملكية ليست سوى خدمة في الكنيسة وتتعلق بالكرسي الرسولي، فالسلطات الدنيوية في منظوره تنظوي تحت لواء الكنيسة وتخضع لسلطة بطرس الذي أعطى سلطة الحل والربط.[1]

كما أخذت البابوية تعمل على إبراز هيمنتها وتحقيق سموها من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (816-817) من إنكار شرعية تتويج لويس التقي في حياة أبيه وقيامه بتتويجه مرة أخرى بيده في ريمس سنة 816 تأكيدا لحق البابوية في منج التاج الإمبراطوري.[2]

واختار جريجوري الرابع أن يؤكد أن أوامره وآراؤه ليست أقل قدسية من الأوامر الإمبراطورية وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (853-867) الذي تمسك بآرائه ومسلكه تجاه الإمبراطور مبينا سمو البابوية على الإمبراطورية ، وهو المبدأ الذي ظلت البابوية تجاهد في سبيل تحقيقه منذ عهد جريجوري العظيم حتى عهد بونيفيس الثامن.[3]

والنظرية التي تصرف على أساسها ، باباوات القرون الوسطى ،هي نظرية السلطة المباشرة وهي تدعي تأسيس ولاية البابا على أمور الدنيا تأسيسا لاهوتيا واضحا.

---

* شرع البابا غريغوريوس السابع للعقيدة الثيوقراطية أي تلك التي تشرع أول ما تشرع لسلطة الكنيسة وسلطان البابا في فصول واضحة وهكذا نقرأ في الفصل التاسع من تلك العقيدة أو الدستور المقدس،(أن البابا هو الإنسان الوحيد الذي يمكن للأمراء تقبيل قدميه) ونقرأ في الفصل الثاني عشر منه (يسمح له أن يطيح بالأباطرة من عروشهم) كما نقرأ في الفصل الثامن عشر (أن كلمة البابا لا يمكن أن يقومها إنسان في حين أن له أن يبدي النظر في الأحكام الصادرة عن البشر الآخرين) ونقرأ أخيرا في الفصل التاسع عشر أنه (لا يمكن للبابا أن يكون موضع محاسبة من أي كان) أنظر مركز دراسات الوحدة العربية (المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية) ، بيروت 1992، ص: 43-44

[1]- رياض جندي ملطي، تاريخ أوربا الحديث من عصر النهضة الى الثورة الفرنسية ،ط1، 1932، ص:34.

[2]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى دار النهضة العربية بيروت 1986.ص 115

[3]- ن.م.ص: 293.

وأصحاب هذه النظرية يعتبرون أن السلطة الروحية في الكنيسة تتضمن السلطة الزمنية وبشكل عادي .

إلا أنه يستعيد السلطة الزمنية في حالات قصوى، كحالة الخطيئة العلنية أو في شغور مركز السلطة الزمنية ، أو عندما تستدعي أوضاع محددة، وفي حالات استثنائية أن يأخذ البابا مسؤولية تحمل السلطة الزمنية للمصالح العليا للعالم المسيحي.[1]

يقول البابا عزيغوريوس السابع : إن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كله، يستمد نفوذها من الله مباشرة، وتمد ملوك الأرض وأمرائها بالنفوذ، وأن البابا له مركز قوة في العالم وهو الذي يولي الاساقفة ويخلعهم وله الحق في خلع الأباطرة لأنه سيدهم الذي لا يسأل عما يفعل[2].

ثانيا: الظروف الاقتصادية:

لم يستطع اقتصاد القرون الوسطى التملص من اتباع التعاليم الكنسية التي كانت جزءا من النظام الأخلاقي المسيحي كما أنه كان في الوقت نفسه خاضعا ومقيدا بالأعراف الإقطاعية السائدة .

وارتكبت الكنيسة خطأ فادحا بإقرارها للواقع الاجتماعي التراتبي وعدم وضع سياسة اقتصادية عامة وعادلة تستمد أصولها من الدين كما أن سلوكها الذاتي وطغيانها المالي الفضيع قد جعلاها قدوة للظالمين ومحط أنظار المقت والحقد من المظلومين .

يقول ول ديورانت: (اصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الاقطاعيين في أوربا فقد كان" ديرفلدا" مثلا يمتلك (1500) قصر وكان دير " سانت جول" يملك ألفين من رقيق الأرض وكان "الكوين فيتور" أحد رجال الدين سيدا لعشرين ألفا من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ويلقبون "بالدوق" و" الكونت" وغيرها من الألقاب الإقطاعية، هكذا أصبحت الكنيسة جزءا من النظام الإقطاعي وكانت أملاكها الزمنية أي

[1]– مركز دراسات الوحدة العربية (المجتمع المدني في الوطن العربي) ص: 44.

[2]– محمد رفعت ، معالم تاريخ العصور الوسطى ص: 133.

المادية وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحي متمسك بدينه وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ومصدرا للجدل والعنف بين الأباطرة والباباوات)[1].

وكانت الكنيسة تملك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية باعتبارها أوقافا للكنيسة، بدعوى أنها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية إلا أنها أسرفت في تملك الأوقاف حتى وصلت نسبة أراضي الكنيسة في بعض الدول الى درجة لا تكاد تصدق ويقال أنه صار لهم في فرنسا ربع الأرض، وقد قال المصلح الكنسي (ويكلف) ، بأن الكنيسة تملك 1/3 أراضي إنجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي.[2]

وفرضت الكنيسة على كل أتباعها ضريبة العشور وبفضلها كانت الكنيسة تضمن حصولها على عشر ما تغله الأراضي الزراعية والإقطاعيات وعشر ما يحصل عليه المهنيون وارباب الحرف ، غير الفلاحين[3].

يقول ويلز : (كانت الكنيسة تجبي الضرائب ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها ، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والبر، بل طالبت به كحق)[4].

ولم تشبع الأوقاف والعشور نهم الكنيسة الجائع وجشعها البالغ، بل فرضت الرسوم والضرائب الأخرى ولاسيما في الحالات الاستثنائية كالحروب الصليبية والمواسم المقدسة كما حظيت الكنيسة بالكثير من الهبات التي كان يقدمها الأثرياء الإقطاعيون خاصة بعد مهزلة صكوك الغفران إذ انهالت التبرعات على الكنيسة وتضخمت ثروات رجال الدين.[5]

---

[1]– ول ديورانت، قصة الحضارة ، مجلد 14 ص :425.

[2]– –هـ– فيشر (تاريخ أوربا ج:2، ص:362–364)

[3]– هنري بيرين ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى – الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ترجمة وتحقيق عطية القوصي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996 ص:18.

[4]–هـ–ج– ويلز – معالم تاريخ الإنسانية مجلد 3ص :895

[5]–سفر الحوالي، العلمانية ، ص:259.

يقول تولستري: (لقد استولى حب السلطة على قلوب رجال الكنيسة كما هو مستولي على نفوس رجال الحكومات ، وصار رجال الدين يسعون لتوطيد سلطة الكنائس من جهة ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة أخرى.[1]

ثالثا: الظروف الاجتماعية (نظرية الكنيسة ونظام الإقطاع).

هيمن النظام الإقطاعي على الحياة الأوربية طوال القرون الوسطى وهو يأتي في طبيعة الأنظمة الجاهلية التي لا ينفك عنها الظلم ولا ينفصم عنها الطغيان حيث الإنسان في ظله مسلوب الإرادة مهدر الكرامة ضائع الحقوق.

والواقع أن الدول التي تتكون منها القارة الأوربية لم تكن في الحقيقة إلا مجموعة من الإقطاعيات تخضع لملك أو لإمبراطور مركزي، جل همه أن يحصل على الضرائب والجنود من (السيد) مالك الإقطاعية ، فكانت تبرز الصورة البشعة للنظام الإقطاعي.[2]

ومع ملاحظة أن هذا النظام تختلف صوره باختلاف العصور والأقاليم فإن ملامحه العامة وجوهره الموحد يمكن أن يحصر في تقسيم المجتمع إلى طبقتين : إحداهما في قمة الترف والأخرى في حضيض العوز، وكل طبقة تتألف من طائفتين ، فالطبقة العليا هي طائفتا السادة الملاك، ورجال الكنيسة ، والطبقة الدنيا هي طائفتها العبيد ورقيق الأرض، ومن هذه الأخيرة صغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة.[3]

وكان الإنسان في ظل هذا النظام مستعبدا لسلطتين غاشمتين:

سلطة السادة الإقطاعيين وسلطة رجال الدين، فالسيد يملك الإقطاعية بمن عليها من الفلاحين ويسن لها القوانين ويفرض عليها العقوبات كما يشاء أي أنه كان يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية في آن واحد.

---

[1]– أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص: 235

[2]– ميلاد المقرحي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، من عصر النهضة الى الحرب العالمية الثانية ، منشورات الجامعة المفتوحة طرابلس 18 ن 1991 ، ص:10

[3]– ن.م.ص 28.

أما رجل الدين فيبارك الاستبعاد بحجة أنه نتيجة للخطيئة الأولى ويشارك السيد في تسخير العبيد لمصلحته الشخصية إذ أن الكنيسة كما سبق جزء لا ينفك من النظام الإقطاعي ولم تحاول الكنيسة تغيير بنية المجتمع المسيحي، أو تنظيم بعض جوانبه بل أقرت النظام الإقطاعي السائد وأصبحت مؤسسة من مؤسساته التابثة وأقرت الاضطهاد الفظيع الذي كان يتعرض له أرقاء الأرض رغم تنافيه مع تعاليم المسيح.[1]

يقول د. سعيد عبد الفتاح عاشور : (غذى البابا أقرب أن يكون نبيلا رومانيا، أما الأساقفة، فكان لهم في الباباوات أسوة سيئة فسرعان ما أصبحوا من رجال الإقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات بل إن وظائفهم نفسها غدت إقطاعية وهكذا خرج الأساقفة عن دائرة اختصاصهم الديني إلى المشاركة في الحروب وعقد المجالس القضائية وجميع الضرائب والمكوس الإقطاعية لا داخل أراضيهم الخاصة فحسب بل في أراضي النبلاء المجاورين أيضا).[2]

وهكذا كان النظام الإقطاعي نظاما ثابتا الى درجة الجمود ، ثابت التوزيع الاجتماعي، ثابت الحقوق والواجبات ثابت الأخلاق والتقاليد ثابت الأفكار والمعارف ثابت الأحوال والمعيشة ، كما مثل صورة بشعة لإهدار الكرامة الإنسانية والحط من قيمة الإنسان واستعباده بفظاظة، وكان ذلك مدعاة لأن يصطدم هذا النظام بسنة الله في الكون وفي سير التاريخ فقد تزعزع هذا الثبات بالنهضة العلمية وحركة الإصلاح الديني .

رابعا: الاضطهاد الكنسي للعلم والعلماء :

[1]– أندريه كرسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، ترجمة عبد الحميد حمود، ط:2، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، ص:140.

[2]– سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 219–292.

أساءت الكنيسة ممثلة في رجال الدين، استعمال سلطانها الهائل فاستغله رجالها لأنفسهم ونفوذهم الشخصي وجاههم ، واحتكرت الكنيسة العلم وهيمنت على الفكر البشري بأجمعه فأضافت للطغيان الديني طغيانا فكريا عاما .

وجناية رجال الدين الأوربيون على الحقيقة كانت أشنع وأنكر من جناية أنصار العلم عليها ذلك أن الكنيسة ارتكب خطأين فادحين في آن واحد:

أحدهما : تحريف حقائق الوحي الإلهي وخلطها بكلام البشر.

والآخر: فرض الوصاية الطاغية على ما ليس في دائرة اختصاصها.[1]

فكان من نتيجة ذلك تسرب الخرافات الوثنية، والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم المسيحية إذ جعلتها عقائد إلهية تدخل في صلب الدين وصميمه وعدت الكفر بها كفرا بالوحي والدين، فكان الامتداد الطبيعي للطغيان الديني طغيانا فكريا عاما، وحاسبت الناس ليس على معتقدات قلوبهم فحسب، بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم، وتوهمت أن في قدرتها أن تملك ما لا تستطيع أية قوة طاغية أن تحتكره وهو الحقيقة العلمية فيما يتعلق بالتجربة المحسوسة أو النظر العقلي السليم.[2] وأول عمل مارسته الكنيسة في هذا المجال هو احتكارها للعلم وهيمنتها على الفكر البشري بأجمعه يقول برنتن: (إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية حتى في أوج العصور الوسطى، كانوا ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية ، وكانوا جزءا من الكنيسة حيث أن الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من ألوان النشاط البشري وتوجهها وبخاصة النشاط العقلي).[3]

وكان رجال الكنيسة متأثرين بتراثهم من الفكر الإغريقي في ميادين العلم والفلسفة،لاسيما آراء أرسطو وبطليموس، وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم

---

[1]- توفيق الطويل ، قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، ط:2 دار مصر للطباعة ص : 151-152.

[2]- ن.م ، ص: 152

[3]- جرين برنتن، أفكار ورجال قصة الفكر الغربي ، ص: 231.

الدينية وآرائهم الفلسفية ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى (الفلسفة المسيحية*) وهي خليط من نظريات الإغريق وظواهر التوراة والأناجيل وأقوال القديسين القدامى.

فأدمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليه العلم البشري في عصرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية ، ورأت الكنيسة في هذه (الفلسفة التوفيقية* خير معين على الدفاع عن تعليمها ضد المارقين والناقدين فتبنتها رسميا وأقرتها مجامعها المقدسة حتى أضحت جزءا من العقيدة المسيحية.[1]

يقول أبو الحسن الندوي: (من أعظم أخطاء رجال الدين في أوربا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين، الذي كانوا يمثلونه أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني ، وكان ذلك أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين فإن ذلك كان سببا للكفاح المشؤوم بين الدين والعقل والعلم الذي أنهزم فيه الدين)[2].

ويضيف : (ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها وألفوا في ذلك كتبا وتآليف وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان (الجغرافية المسيحية) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها).[3]

---

* يعتبر أوريجين من أعظم عباقرة المسيحية والعالم القديم، وهو الذي أجرى اتصالات دائما بين المسيحية والفلسفة القديمة

[1]– رونالد سترو مبرح، تاريخ الفكر الأوربي الحديث ترجمة أحمد الشيباني.

[2]– أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص: 249–248.

[3] ابو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

ولقد كان ليكونت دي نوري صادقا عندما قال: (إن ما أضافه الإنسان إلى الديانة المسيحية والتفسيرات التي قدمها والتي ابتدأت من القرن الثالث بالإضافة إلى عدم الاكثرات بالحقائق العلمية، كل ذلك قدم للماديين والملحدين أقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين)[1] ذلك بعد بزوغ فجر النهضة وانفجار بركان العقلية في أوربا ، حطم علماء الطبيعة سلاسل التقليد الديني فرفضوا هذه النظريات التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم، فثارت ثائرة رجال الكنيسة وأعلنت حالة الطوارئ ، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان، وأصدرت منشورات بابوية تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها وبذلك قامت المعركة على قدم وساق وأخذت تزداد سعارا بمرور الأيام.

وكان أخطر ما افظت إليه هذه الحركة أن الكنيسة أدخلت في قانون أوربا العام، أن الحاكم يحتفظ بعرشه ، متى قام بواجبه في استئصال الهرطقة، فإن تردد في الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الزنادقة أكره على الطاعة وصودرت أملاكه وبيعت لأعوان الكنيسة وعرض نفسه للاعتقال ، وبهذا أقر البابوات نظاما ثيوقراطيا تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على صيانة الدين من كل أذى يصيبه.[2]

ولهذا أنشأ البابا (جريجوري التاسع) محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق عام (1223م) ومكن لهذا النظام أمر بابوي اصدره أنوسنت الرابع عام 1253 وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسي من الكيان الاجتماعي في كل مدينة أو دولة وكانت هذه أداة لكبح التفكير الحر لم يعرف التاريخ لها مثيلا.[3]

وأمام هذه الممارسات الرهيبة التي ذهب ضحيتها الكثيرون ، لم يكن أمام العلماء المتنورين غير أن يثوروا ويعلنوها حربا على الدين وممثلي الكنيسة ، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضدان لا يجتمعان .

---

[1]– توفيق الطويل ، قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، ص:156.

[2]– توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام، دار الفكر العربي والاسكندرية 1947 ص39–40.

[3]– توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ، ص39–40.

وسوف نستعرض ملامح هذا الصراع بإيجاز مراعين في ذلك التسلسل التاريخي:

أولا: القرنان الخامس عشر والسادس عشر:

روعت محاكم التفتيش العالم الأوربي الذي خضع لنفوذها ،وساعدت الكنيسة على التحكم في رقاب الناس وإثارة الفزع في نفوسهم ولكنها لم تستطع أن تقضي على نهوض العقل أو تعوق تقدمه.[1]

وكان من أثر هذا التطور اشتداد حركة الإصلاح الديني.* التي تولت بالنقد أكبر هيئة دينية مقدسة وأتاحت لغير الكنيسة تفسير الأناجيل وبهذا نادى زعماؤها وأفضت من غير قصد إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية، وتمثل هذا الانقلاب في اتجاه العقل الجديد في طريقتين : أولهما إحياء الروح القديمة، فانطلق دعاة المذهب الإنساني منذ القرن (14 الى ق18) إلى بعث ما عرف من آداب اليونان والرومان مسترشدين بها في إخضاع الدنيا لصالح هذا الإنسان الجديد.[2]

وثاني الطريقتين الذين سلكهما العقل الجديد يتجلى في اهتمامه بالطبيعة الحافلة بالحقائق في الدعوة إلى التجربة والاختبار، واستجاب لها العلماء والفنانون ونشأت الجمعيات العلمية صدى لهذه الدعوة ومهد هذا لنشأة العلوم الطبيعية ، مؤيدة بالمخترعات الحديثة وأنساق الناس إلى الكشف الجغرافي التماسا لحقيقة تسفر عنها مشاهدتهم، واتفق رواد الفكر الجديد على استهجان الكتب القديمة والسلطة الطبيعية مصدرا للعلم بالطبيعة الكونية ، ومضى العقل في محاولة اكتشاف الجديد في شتى صوره وأمضى في تحطيم القيم المعتمدة في عصره ، فكان الشك الهدام الذي أطاح بوحدة أوربا العلمية والدينية والسياسية في القرن السادس عشر.[3]

القرنان السابع عشر والثامن عشر:

---

[1]– سفر الحوالي، العلمانية ، ص247.

* حركة الإصلاح الديني التي تزعمها كل من (مارثن، كالفن وهدس).

[2]– توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة ..ص: 151–152.

[3]–محمد علي يوسف الجفوة المفتعلة بين العلم والإيمان ، ص:15–16، بيروت

دخل الفكر الأوربي عصره الحديث في القرن السابع عشر، وشهد ذلك القرن ثورة حضارية وفكرية على أعلى مستوى من الأهمية والمغزى.

وارتبط القرن أوثق ارتباط بالثورة العلمية العظمى، ولا سيما في ميداني الفيزياء والفلك المشتملين على إنجازات غاليليو* ونيوتن، هذين العالمين اللذين لا مثيل لهما في منهاج الغرب وعلومه، كما ارتبط بالفلاسفة العلماء (كفرنسيس بيكون**) و(رينيه ديكارت*** ، وأمثالهما اللذين أناروا قرن العبقرية بجهودهم المقدامة بغية إيجاد منهج جديد كل الجدة في ميدان الفكر.[1]

وإذا كان القرن السابع عشر هو قرن الانتفاضة الفكرية والعلمية فإنه كان كذلك القرن الذهبي لمحاكم التفتيش ، فقد قاس العلماء أنواع الاضطهاد ، واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية ، وظهرت الفهارس أو القوائم البابوية التي تحتوي على أسماء الكتب المحرمة وكان وجود شيء من هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسوقه الى محاكم التفتيش وتعريضه لأليم عقابها[2]. وقد أفضت هذه الحركة إلى القرن الثامن عشر، قرن عصر التنوير، الذي على الرغم من أنه ارتكز أساسا على خلفيات القرن السابع عشر، غير أنه مثل في بعض جوانبه انعطافا واضحا عن ذلك القرن الذي يعتبر بصورة عامة فجر العصر الحديث حيث شاع المذهب العقلي واستبد بهوى المفكرين فأوغلوا فيه إيغالا انتهى بإخضاع الوحي الديني لمنطقه، وسرعان ما انتهى بهم الغلو الى الجهر بمعاداة

* غاليليو (1564–1542) عالم طبيعي وفلكي إيطالي ثار على نظريات أرسطو وهو مكتشف قانون القصد الذاتي أكد على نظام مركزية الشمس الذي قال به كوبيرنكوس، وكانت الملاحظة والتجربة نقطتي انطلاق إلى معرفة الطبيعة وأن مؤلفه الرئيس الصادر في عام 1632 يحمل عنوان حوار.

** فرنسيس بيكون (1561–1626) فيلسوف انجليزي سعى إلى بناء العلوم وفق الطريقة الاستقرائية أبرز مؤلفاته : الأورغانون الجديد، أحكام القانون (عن تاريخ الفلسفة الأوربية ، ص: 44–45)

*** رينيه ديكارت (1596–1630) فيلسوف فرنسي ، ورائد منهم الشك الفلسفي أبرز كتبه مقالة في المنهج (عن تاريخ الفلسفة الأوربية الحديثة ، ص:58)

[1]– رونالد سترومبدج، تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص: 17.

[2]– توفيق الطويل ، قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، ص:152.

الدين المنزل والميل الى تقويم الوحي والقول بفكرة الدين الطبيعي* والسخرية من رجال الإكليروس، وكان (فولتير) وغيره من رجال دائرة المعارف (وهولباخ) وغيره من غلاة الماديين في طليعة الحركة[1].

يقول برنتن : (كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد، العقل هو الذي يسوق الناس الى فهم الطبيعة ، وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقا لها وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل أفكار المسيحية التقليدية الخاطئة وما يحالفها في الأخلاق والسياسة مما يناقض الطبيعة)[2].

لقد كان معظم مفكري هذا القرن يحملون بمسيحية مجردة من كل ما أفسدها عبر العصور والعودة بها إلى نقائها الأول، مسيحية مقتصرة على العقائد البسيطة القليلة ، فجاءت أفكارهم لتهدم العقائد المسيحية وتحدد موقفها من حملات الاضطهاد الكثيرة التي تعرضت لها من قبل الكنيسة.[3]

الثورة الفرنسية :

تضافرت عوامل عديدة كان لها أكبر الأثر في تفجير الثورة الفرنسية* حيث أدى ظهور الحركات الإصلاحية التي تزعمها (لوثر كالفن وهس) وأمثالهم إلى تحطيم الوحدة الشكلية للعالم الغربي المسيحي وضعف السلطة المركزية بكثرة ما أحدثته من مذاهب وفرق لا حصر لها أترث تأثيرا ملحوظا في السياسة الأوربية .

---

*الدين الطبيعي ، فكرة ظهرت مع القرن 16 وتنامت في ق 18 على يد فولتير ، وفلاسفة التنوير وهي دعوة لكسر احتكار الكنيسة والدعوة بالمبدأ الإلهي المسيطر على الكون أو الدين الشامل كما يسميه فولتير ، أو دين الطبيعة البشرية أو القانون الطبيعي الذي يعتبر نتاجا للروح البشرية ولا وجود فيه للعقائد التاريخية وهي الفكرة الشائعة لدى جميع فلاسفة عصر التنوير سواء في المانية عند ولسنج أو في فرنسة عند فولتير وفلاسفة الموسوعة الفرنسية .

[1]– رونالدسترو ميدج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ،ص:14

[2]– جرين برنتن ، أفكار ورجال – قصة الفكر الغربي، ص: 217

[3]– سالمة عبد الجبار ، الدين والسياسة ص:177.

* مهدت للثورة الفرنسية عدة ثورات أهمها ثورة الجاكريه في فرنسا في ق14 وثورة الفرسان في ألمانيا مطلع ق16 وثورة الفلاحين التي حدثت في ألمانيا بعد السابقة بعشر سنوات وكذلك الأراضي المنخفضة وكلها كانت ضد الكنيسة .

تحول آخر عرفه المجتمع الأوربي وأدى إلى تخلخل بعض جوانبه ، ويمثل في إدماج الملوك المركزيين الإقطاعيات الكبرى في الدولة ومن تم خضوعها للحكومة المركزية في الوقت نفسه التي ابتدأت فيه المدن الأوربية في النمو وظهرت الطبقة الوسطى البرجوازية التي بدأت تنافس الطبقة الإقطاعية.

كل هذه التحولات آذنت بهبوب رياح التغيير على القارة وأنذرت بافتتاح عصر جديد مغاير للماضي في قيمه وتصوراته وأوضاعه، وكانت أحوال فرنسا الثقافية والاجتماعية تؤهلها لافتتاح ذلك العصر ففي السنوات السابقة للثورة بلغ الفساد السياسي والتدهور الاقتصادي في فرنسا غايته ، وأرهق كاهل الشعب بضرائب فادحة فازدادت أحوال الطبقات المسحوقة سوءا وعصفت بالبلاد موجة من الجوع ونقص المؤن.[1]

ولقد كان الانهيار المالي الاقتصادي من الأسباب التي عجلت بالثورة ، ومن ناحية أخرى كان التدخل الشعبي الذي تسبب في الانهيار المفاجئ للنظام الاجتماعي القديم ، وقد مهدت له التعبئة التدريجية للجماهير ، تحت التأثير المتزامن مع الأزمة الاقتصادية.[2]

إضافة إلى الأزمة المالية والاقتصادية هناك عوامل أخرى سببت في حدوث الثورة من بينها النظام الملكي المستبد، ففي القرن الثامن عشر كانت الملكية الفرنسية لا تزال مطلقة السلطات ، ومما كان يزيد في مساوئ الملكية أن النظام الحكومي كان مركزيا وكانت السلطة المركزية ممثلة واسعة في الأقاليم فقط بموظف أطلق عليه وكيل الملك وقد كان لهذا الموظف سلطات واسعة يستخدمها في أغلب الأحوال لجمع الضرائب المقررة لصالح البلاط والحكومة المركزية ثم هناك نظام الطبقات وما يرافقه من امتيازات لفئة قليلة من الناس على حساب عامة الجماهير فكان المجتمع الفرنسي مقسما إلى طبقات ثلاث: وهي طبقة الأشراف التي تتميز بامتيازات كثيرة في مجال الضرائب، ثم طبقة رجال الدين التي كانت تتمتع بامتيازات تقليدية ترجح في أصولها إلى القرون الوسطى وأخيرا الطبقة الثالثة أو الطبقة العامة وهي تظم كافة الجماهير الفرنسية، وهذه الطبقة

[1]– سفر الحوالي، العلمانية ، بتصرف .

[2]– ميلاد المقرحي ، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر (من عصر النهضة الى الحرب العالمية الثانية) ص:72 ط:1/1991 منشورات الجامعة المفتوحة طرابلس

تحمل أعباء الدولة كلها مثل تقديم الجنود للحروب، ودفع الضرائب المتزايدة وخدمة للأشراف والكنيسة، وفي الوقت عينه محرومة من الحرية والمساواة أمام القانون وحق اختيار النظام الاقتصادي والسياسي.[1]

وكان انقاد الشعب يتطلب القيام بعمل يودي بالظلم ويزيح كابوسه عن المهضومين ووقف الشعب بكل فئات (الفلاحين ، المهنيين، القساوسة الصغار) جبهة واحدة، وكانت الجبهة الأخرى ائتلافا بين الطبقتين المحتكرتين (رجال الدين والأشراف) وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوربا المسيحية دولة جمهورية دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب وليس (باسم الله) وعلى حرية التدين بدلا من الكثلكة وعلى الحرية الشخصية بدلا من التقيد بالأخلاق الدينية وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة.

وقامت الثورة بأعمال غريبة على عصرها فقد حلت الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت أموال الكنيسة وألغت كل امتيازاتها، وحوربت العقائد الدينية هذه المرة علنا وبشدة وأصبح رجل الدين موظفا مدنيا لدى الحكومة.

[1]– ميلاد المقرحي ، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ،ص73.

الخلاصة:

نشأ مفهوم العلمانية في أوربا ، وفي فرنسا بوجه خاص، وتطور ليصبح فكرة سياسية تولدت عن فصل الكنيسة عن الدولة، وبنتيجة هذا الفصل، ترتب على الدولة ألا تمارس أي سلطة زمنية أي سياسية (فالدولة بهذا المعنى مستقلة في شؤونها الزمنية تعالجها في ضوء العقل، وليس بواسطة الدين، وهي محايدة تجاه جميع الأديان في مجتمعاتها تعاملها على قدم المساواة ،دون تدخل في شؤونها، بينما الكنيسة حرة في شؤونها الروحية والدينية).[1]

فالعلمانية إذا في نظرة كلية وبمعزل عن موطن نشأتها الأول هي نتاج العقل العلمي في الفلسفة وثمرة من ثمرات العقل والعلم في البحث عن حلول لمعضلات الحياة الإنسانية.

لقد نشأت العقلية المعلمنة في الغرب، وتجسد فعل التحول الفكري في الطلاق بين العلم والدين وإفساح المجال أمام العقل ليقول كلمته في كل شيء وأول من نادى بذلك غليوم أوكام *Wiliam ockham الذي اعتبر أنه ليس على الإنسان أن يفهم ما وراء الطبيعة بل عليه وبإمكانه أن يفهم ما في الطبيعة ، فكانت تلك نقطة تحول بالنسبة للعلماء والباحثين ولاسيما أن بعض المحاولات العلمية قد نجحت وأدت إلى العديد من الاكتشافات.

وفي مرحلة النهضة (la renaissance) ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر نمت الروح الدنيوية في الإنسان.

وفي القرن السابع عشر يأتي العقل والاختبار ليحتلا مرتبة سامية بعكس المعتقدات والممارسات الدينية القائمة على العالم الآخر والوحي ويعاد للإنسان دوره في رسم

---

[1]- عبد العزيز قباني (العلمنة والعروبة) في مجلة آفاق عدد حزيران ص48-42-1978 بيروت

*غليوم أوكان Wiliam ockham 1295-1349 من الفرسكيين ، لكنه تحرر من كل فلسفة مدرسية ، يعتبر مؤسس الفكر الحديث ، أنكر على البابا التدخل في الشؤون المدنية، من مؤلفاته (شرح على الأحكام) (مائة قضية لاهوتية) عن تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الحديث ، ليوسف كرم ، ص208.

مصيره[1]، ومع مارتن لوثر Martin luther برز الاصلاح الديني داخل الكنيسة بالدعوة إلى الكتاب المقدس، والتأكيد على أن الإنسان مسؤول أمام الله وحده، وأن له الحق في الانتقاد ما يصدر عن الكنيسة وليس سلطة العفو عن الذنوب والتطهير من الآثام.

إن محاولات الإصلاح الديني داخل الكنيسة المسيحية مثلت هي الأخرى تطلع البرجوازية لهدم المرتكزات الدينية كدولة الإقطاع المتهاوية تحت ضربات منجزات العلم والصناعة والثورات الإجتماعية والسياسية[2] وعلى خط آخر تفاعل الفكر السياسي الأوربي حتى أواخر القرن الثامن عشر مع الفلسفة العقلية التي تبناها رينيه ديكارت (Réne Descartes) وفرنسيس بيكون (Françis Becon) الأمر الذي أدى إلى وضع ليس سلطات الكنيسة موضع التساؤل فقط بل معتقداتها أيضا حيث بدا في بعض الحالات أن المسيحية نفسها كدين مهددة بالزوال وذلك في ضوء القوانين التي أصدرتها الثورة الفرنسية التي انفجرت عام (1789) وتناولت سلطة الكنيسة ودورها ، فبدءا من (4آب 1789) فقد الإكليروس مرتبته كهيئة ذات امتيازات وحرمت من تحصيل العشر وهو ضريبة كانت تجبى لصالحها[3].

ومن الانجازات العلمانية للثورة الفرنسية مباشرتها تحقيق الإصلاح التربوي ، فقد تم انتزاع علمنة التعليم تقريبا في المدرسة والجامعة من رجال الدين وتسلمتها الدولة، كما تم تأمين الأوقاف من قبل الدولة والتوصية بالزواج المدني وحصل ما سمي بنظام الفصل (Regime de la Séparation) وبلغت عملية العلمنة ذروتها حيث تم الفصل التام بين الدولة والكنيسة[4] ومن فرنسا انتشرت الأفكار العلمانية إلى أوربا التي كانت قد نضجت فيها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لاستيعاب التوجه العلماني على صعيد النظم والمؤسسات .

---

[1]– بولس الخوري، (الدين والعلمنة) في مجلة آفاق ، نيسان 1974 ص4–57

[2]– جوزيف مغيزل العلمانية والعروبة ص132—دار النهر للنشر – بيروت 1980

[3]– عصام خليفة ، مدخل إلى تحديد العلمانية وتطورها في الغرب ، في مجلة الجندي عدد نيسان 252، ص26.

[4]–حسين سعد بين الأصالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية ص15 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشور والتوزيع ، بيروت 1993

إنه الباب ، وقد فتح على مصراعيه ، الذي يقود إلى العلمانية .

وتصبح الحقبة التالية من التاريخ هي حقبة صراع الدين مع العلمانية فماهي مجالات هذا الصراع ؟ وماهي رهاناته ؟ وماهي أبعاده؟

الفصل الثاني

المبحث الأول:

كيف واجهت الكنيسة تحديات العلمانية

واجهت الكنيسة ، منذ بداية القرن العشرين واقعا جديدا هو واقع المجتمعات العلمانية، وبات عليها أن تكيف لاهوتا على هذا الواقع الجديد.

فكيف واجهت الكنيسة لاهوتيا واقع المجتمع العلماني؟ وكيف صاغت الكنيسة لاهوتا أو مقولات لاهوتية تشرعن ممارستها كسلطة في عالمي الدين والدنيا .

نشير في البداية أن ظاهرة العلمنة في المجتمعات الغربية أحدثت لدى الأوساط اللاهوتية والكاثوليكية خاصة، نوعا من الحيرة والضياع والتضارب في المواقف، وساد اعتقاد راسخ لدى عدد كبير ، أن العلمانية معادية بالضرورة للدين وعاملة على نقض عراه، بل إنها مثلت لدى غالبيتهم نقيض وخلافه، كما ثمة اعتقاد مخالف لهذا الرأي يعبر بلا شك عن وجهة نظر الأقلية رأى في العلمانية ضرورة من ضرورات الحفاظ على الدين الحق، ووسيلة لا بديل عنها للحفاظ على نقاوة الممارسة الدينية من أي شبهة أو شائبة لتحقيق مصالح الناس كافة والمتدينون من ضمنهم.

إن الإشكالية الأساسية التي بنى عليها اللاهوت المسيحي تفكيره وبحثه طرحت على الشكل التالي: ماهو مصير الدين؟ هل من معنى للايمان المسيحي بعد اليوم؟ هل من مستقبل لله في العالم المعلمن؟ هل باستطاعة اللاهوت المعاصر أن يدحض فرضية التناقض القائم مابين الإيمان المسيحي والعالم المعاصر المعلمن؟ وبالتالي، هل بالإمكان عدم رفض هذا العالم بشكل مسبق، أو في أفضل الأحوال قبوله كواقع حتمي لا مفر منه واعتماد مسلك راعوي ، يتناسب في آن معا مع متطلبات الإيمان وقدرية العلمنة؟ أم أنه يمكن لاهوتيا الوصول الى التأكيد بأن ظاهرة العلمنة هي نتيجة شرعية وضرورية للإيمان المسيحي نفسه؟

اللاهوت البروتستانتي، كان سباقا إلى صياغة لاهوت ، سمي بلاهوت العلمنة فما هي مضامين هذا اللاهوت؟ وما هي أطروحاته الأساسية؟ ومن هم أهم رواده؟ والحديث عن لاهوت العلمنة البروتستانتي يدعو بالمقابل إلى التساؤل عن مدى إمكانية وجود لاهوت كاثوليكي تناول ظاهرة العلمنة ، فإن كان كذلك، فما الفرق بينه وبين اللاهوت البروتستانتي.

لاهوت العلمنة البروتستانتي:

تجدر الاشارة إلى أن التوجه العام للاهوت البروتستانتي حيال ظاهرة العلمنة هو توجه متفائل بالصميم، يتضح ذلك مع أول رواد لاهوت العلمنة ، فريدريك غوغارتن * فما هي أطروحة غوغارتن الرئيسية .

1- فريدريك غوغارتن:

يرى غوغارتن أن العلمنة تجد جذورها في الإيمان المسيحي نفسه، فهي بالتالي ظاهرة لاحقة للمسيحية، أو بالأحرى منبثقة بتأثير مسيحي فالإيمان بأن الله، هو الذي خلق العالم يجعل الإنسان في يقين بأنه جعل (مابين الله والعالم)** .

وبالمسيح أصبح الإنسان أبنا أي وريثا، فالله إذا أوكل إليه مهمة جعل العالم مجالا لسيطرته، وبهذا المعنى يقول بولس للمسيحيين" أن كل شيء مباح" ويرى غوغارتن في هذا الكلام المفتاح الأساسي للاهوت العلمنة، فهذا القول ينشئ "دنيوية "العالم" ويستبعد فكره وجود مجال يكون إلى جانب الآخر ، معتبرا مقدسا، لكن اللاهوت لا ينسى تكملة الآية المذكورة أعلاه" ولكن ليس كل شيء ينفع" فعلى الإنسان أن يميز بين الأمور، والتمييز هو الذي يجريه بواسطة عقله، العقل بالتالي هو الوسيلة التي بها يسيطر على العالم، وعليه ألا يتخلى أبدا عنها، فإن فعل خان دعوته ،والإيمان هو الذي يعطيه القناعة بأنه مسؤول أمام الله في كيفية استخدام هذه الوسيلة، وهذا فإن استقلالية العقل- العقل الذي هو مبدأ العلم والتقنية الذين يحولان العالم، تستنتج من العالم المسيحي[1] .

إذن لاهوت العلمنة يرتكز على إجراء تمييز واضح ما بين الله والإنسان، ما بين الإيمان والعالم، وعلاقة الإنسان مع العالم بإخضاعه الطبيعة هما علاقتان مرتبطتان الواحدة بالأخرى ارتباطا وثيقا، ومن الممكن أن يؤدي فك الإرتباط ما بينهما إلى إحداث

* غوغارتن ، هو أحد رفاق ،اللاهوتي البروتستانتي الشهير(كارل بارت)، ومثل هذا الأخير يصنف في مدرسة (اللاهوت الجدلي Théologie Dialectique توفي غوغارتن في 16 تشرين الاول 1968 عن عمر يناهز الثمانين عاما.

**هذا عنوان أحد كتب غوغارتن

[1] - Frederic gogarten, Destin et Espoirs du monde moderne Tournoi –Paris 1970 p207

اختلال في التوازن الأمثل، فعلى الإنسان أن يحافظ على طهارة الإيمان وعلى دنيوية العالم، ولله وحده ملكية المعنى الأخير، ولله وحده ملكية وحدة التاريخ أما الإنسان فعليه أن يبقى في تساؤل غير منقطع ، لأنه إذا انقطع الإيمان عن التساؤل وتحول إلى دين يبنى العالم مسيحيا ، نتج عن ذلك خطيئة ، تشبه ما فعلته المسيحية التاريخية على مر العصور حينما لم تعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله وما للعقل للعقل.[1]

وإذا ما تعلمن الإيمان وقع في لا شرعية ، فالإيمان لا يمكن أن يصبح جوابا نهائيا وأكيدا ومحكما لما لا يملك له جوابا إلا الله، أي لما هو الشكل النهائي للمصير والشكل النهائي للتاريخ.

وذلك لا يعني أن على الإنسان ألا يسعى ،عبر التساؤل غير المنقطع ،للحصول على الجواب فإن لم يسأل لن يكون إنسانا تاريخيا.

والعلمنة معرضة هي أيضا لأن تتحول إلى "أيديولوجيا علمانوية Idéologie sécularisme وذلك عندما ينقطع الإنسان عن الإيمان ويعتبر نفسه المالك المطلق للعالم كله، حينذاك يقع في العدمية ،أو في الشك المطلق، أو في كل أنواع المطلقيات[2].

ويصف غوغارتن العلمانوية بأنها المرض المزمن للتاريخ المعاصر ،ويعدد أصنافا من هذا المرض كالمثالية والذاتية، والمادية والشيوعية والقومية.[3]

إن غوغارتن ،كان أول من جعل من العلمنة موضوعا مميزا لتفكير لاهوتي منهجي، فلم يحاول أن يعطي العلمنة شرعية لاهوتية فحسب، لكنه أيضا وبنوع خاص صب اهتمامه على إبراز كل المعاني التي يمكن أن تتضمنها العلمنة في الصميم وذلك من جهة ، لكي يطمئن المسيحي بأن العلمنة لا يمكن أن تشكل خطرا على إيمانه ، ومن جهة أخرى ليكشف جميع الالتباسات التي يمكن أن تنطوي عليها العلمنة، وبالتالي ، الأخطار التي قد تنجم عنها أحيانا وتطال العالم والمسيحية في آن معا، فالأخطار التي قد تطال

[1] - Frederic gogarten, Destin et Espoirs du monde moderne Tournoi –Paris 1970 p207-209.
[2] - Frederic gogarten, Destin et Espoirs du monde moderne Tournoi –Paris 1970p140
[3] – ن.م.ص:143

الإيمان مثلا، قد تأتي من علمنة تدفع الإيمان إلى أن يتقلص وينعزل في حدود المسلك الأدبي الفردي، أو في الاهتمام ألحصري بتحقيق الخلاص الشخصي.

أما الأخطار التي قد تطال العالم نفسه،فقد تأتي عندما يطبق العلمنة أناس غير مهيئين كفاية وهكذا فلكي لا تنحرف العلمنة،على الإيمان أن يلعب وظيفة حارس يحمي العالم وحرية الإنسان من كل ما يمس دنيويتهما.[1]

2- بونهرفر (نبي العلمانية):

إذا كان (فريدريك غوغارتن) هو أول من أطلق لاهوت العلمنة المنهجي فإن (ديتريش بونهوفر)* اعتبر من كبار (أنبياء العلمنة) ، كتاباته المتعددة والمتنوعة في اهتماماتها عرفت انتشارا واسعا وفكره الذي عبر عنه في اتجاهات متعددة أصبحت مرجعا عاد إليه العديد ممن حاولوا تأسيس العلمنة مسيحيا، وشكل دفاعا عن العلمنة الراديكالية باعتبارها إمكانية مميزة لإعادة اكتشاف إله الوحي الحقيقي.

ويتمحور اهتمام " بونهوفر" حول مسألة مصير الإيمان المسيحي في عالم ينشأ بمعزل عن فرضية الله، ففي الواقع (العالم الحديث) عالما يرى نفسه قد أصبح راشدا حيث بات الناس فيه أكثر فأكثر لا يشعرون بالحاجة إلى اللجوء إلى عالم آخر غيبي يعطي حياتهم معنى وقيمة لذا قرروا أن يأخذوا مسؤولية مصائرهم بأيديهم بمعزل عن الله ، وهكذا أصبح هؤلاء "لادينيين" هنا نقرأ" بونهوفر" شارحا هذه الظاهرة بشكل لم يعتده اللاهوت التقليدي فمثل هذا الدين (ويفضل أن يسميه تدينا) الذي نراه ينحسر ويتلاشى إنما يتطابق مع عصر ثقافي (وهو لا يأسف لحدوث مثل هذه الأمور).ذلك لأن الإيمان المسيحي ، برأيه يجب ألا يرتبط بهذا العصر ولا بأي من الثقافات التي عبرت تاريخيا عنه، لا بل إن الإيمان المسيحي يكتسب نقاءا ومناعة وعمقا إذا ما تحرر من كل

[1]- Frederic gogarten, Destin et Espoirs du monde moderne Tournoi –Paris 1970p143

* ولد في عام 1906 في أول شباط 1933 أعلن من محطة إذاعة برلين معارضته لسياسة هتلر مكث في لندن من العالم 1933 حتى العام 1935 وتنقل في عدة بلدان ، لكنه عاد إلى ألمانيا ،حيث اعتقل بتاريخ 5 نيسان 1943 نفذ فيه حكم الإعدام شنقا في 7 نيسان 1945

ارتباطاته الثقافية وارتهانه للأشكال الدينية، ويخلص إلى القول : (إن إله الوحي وإله الإنجيل، مختلف جذريا عن إله الدين).

وعلى هذا أساس يصبح بإمكان إنسان القرن العشرين، الإنسان المعلمن والإنسان اللاديني أن يؤمن بالمسيح يسوع لكن بونهوفر لا يبدو مهتما بشكل أساسي ومباشر بأن يقوم بمسعى توفيقي، بل اهتمامه الأساسي ،فيما هو يعري الإيمان .المسيحي من ثيابه الدينية، أن يسلط الضوء على حقيقة هذا الإيمان وأن يعرف بالتالي عن الله الذي هو موضوع هذا الإيمان، فالمسيح في نظره ، يجب ألا يكون فقط (موضوع الديانة) أي موضوع قطاع معين ومحدد ومحصور، يندرج في سياق الواقع الذي يعبر فيه الوجود البشري عن ذاته (أن يكون المسيح شيئا آخر مختلفا بالكلية، أن يكون حقا سيد العالم)،لذلك على الإيمان ألا ينكفئ في عالم الدين الضيق ،بل عليه أن يحي الوجود بكليته.إن الفعل الديني يقول" بونهوفر"، (هو دائما فعل جزئي ،أما الإيمان فهو فعل كلي)[1].

المسيحية إذن ليست ديانة هروب، أو صفة روحية يستخدمها المرشحون إلى السماء، كما أن المسيحية ليست من جهة أخرى تطويعا للواقع وتطابقا انتقائيا مع أشكاله المتعددة إن الله في يسوع المسيح هو بنية الواقع ومركزيته، يسوع المسيح هو الله الذي أصبح إنسانا لكي يصبح كإنسان، مسؤولا أمام الله عن الكائنات والأشياء بكليتها ،فإذا اعتبر أن ماهية الديانات تقوم، وبمساهمة روحية، بسد كل أنواع العجز البشري، فالمسيحية ليست بديانة وإذا اعتبر أن الإلحاد يقوم بإنجاز المهمة البشرية ،دون أن يتقدم بها أمام الله، فالمسيحية ليست أيضا إلحادا، المسيحية تشبها بيسوع المسيح، هي في آن معا، مقاومة مسؤولة وطاعة واثقة، والله ليس سدادة تفسيرية لسد فراغات جهل الإنسان وليس منافسا للإنسان عندما يقوم هذا الأخير بتحمل مسؤوليته، بل إنه كفيل المسؤولية التي يتحملها الإنسان[2].

[1] - Dietrich Bonhoeffer, Témoin de jesus – christ parmi ses frères paris –Tournoi Gasterman 1967

[2]-Dietrich Bonhoeffer, Témoin de jesus – christ parmi ses frères بتصرف

لقد حملت كتابات "بونهوفر" الأخيرة شعورا حادا بأن العالم أصبح مهملا وخاليا من وجود الله، إلا أن هذا الشعور قاده إلى اكتشاف معنى إيجابي مزدوج لضعف الله في وسط العالم، حيث رأى في ذلك موافقة الله نفسه على استقلالية هذا العالم الذي أصبح راشدا.

وعلى هذا الأساس تتحدد الكنيسة على أنها جزء من العالم تمارس فيه المسؤولية المكلفة حتى الخضوع للموت، الموت الذي يصبح بابا يفضي إلى الحرية وليس انسحاقا أمام القدر الغاشم وتصور كهذا يحتم على الإنسان أن يقبل تخلي الله ليعيش أمام الله، وعلى خطى المسيح تضامنه مع العالم الأرضي والقيامة حينذاك لن تكون أبدا هروبا من العالم بل إعادة خلق العالم.[1]

3- هيرفي كوكس (Harvy cox) والمدينة العلمانية:

يبقى الكتاب الذي عالج العلمنة وعرف انتشارا واسعا حتى الآن ، هو كتاب اللاهوت الأمريكي هيرفي كوكس، (المدينة العلمانية)** (La cite séculier) فما هي الأطروحة الأساسية التي حملها كوكس؟

يقول: (على الرغم من أننا لا نستطيع اعتبار المدينة العلمانية على أنها هي ملكوت الله، فإن هذه المدينة تفتح أمام الإيمان المسيحي آفاق جديدة وإمكانيات فريدة بفضلها يمكننا اكتشاف أبعاد جديدة في الإنجيل ، كما أنها جديرة أكثر من أي شيء آخر من أشكال المدنية ، بأن تستجيب للمخطط الإلهي).

ثم يحدد كوكس مهام المدينة العلمانية وما تطرحه من إمكانيات فيصفها بأنها مدينة " تقنية" وتتميز بعدة مميزات ، الميزة الأولى هي " الغفلة" أي أن سكانها مغفلون ،وليس هذا الأمر عيبا أو نقصا، بل إنه شرط أساسي لكي يعيش الإنسان حياته الخاصة، والإنسان إذا لم يتمكن من عيش حياة خاصة ، فإنه لن يعيش حياة إنسانية حقيقية.

---

* لقد شكل فكر بونهوفر : لاسيما الرسائل التي كتبها في سجنه، وكذلك مثال حياته واستشهاده غذاء للتيار اللاهوتي المسمى بلاهوت التحرير والذي عرف رواجا في أمريكا اللاتينية، كما ماثل العديد من المسيحيين الملتزمين ما بين بونهرفر والقسيس مارتن لوتر كينغ الذي ذهب ضحية التزامه بالحق ودفاعه عن المستضعفين وبمناهضته العنصرية .

** نشر الكتاب في نيويورك في العالم 1965 بعنوان: The secular city, secularization and urbanization in theological perspective ترجم الى الفرنسية في العام 1965 تحت عنوان : (La cité séculière).

أما الميزة الثانية فهي" الحركية" وبالرغم من أن الحركية تنطوي على بعض المخاطر، لكنها وسيلة أساسية للتخلص من العبودية، وهنا يجري كوكس مقارنة ما بين الحركية في العالم المعاصر، والحركية التي تتجلى من خلال الكتاب المقدس، فالرحيل في الكتاب أمر مركزي يحمل أبعادا روحية عميقة الدلالة ، فالشعب العبراني هو شعب البداوة والترحال الذي ما أن يستقر في مكان، حتى يأتيه صوت الله قائلا: ارحل ، وكلما استعذب الشعب العبراني المكوث في الأرض واستوطن فيها ، وأصبح من المالكين لها ومن سكانها ومال إلى آلهتها الوثنية آتاه صوت الله قائلا من جديد (ارحل).

والمسيحيون الأوائل كانوا يعرفون أن ليس لهم مدنية ثابتة بل كانوا يسمون (شعب الطريق)[1] من جهة أخرى، يرى "كوكس" أن سكان المدينة العلمانية يعتمدون نهج البرغماتية ويتسم مسلكهم "بالدنيوية".

والبرغماتية تجعل الناس ينظرون الى الحياة على أنها ليست شرا لا يسبر غوره، بل الأحرى مجموعة مشاكل يجب حلها، لكن البرغماتية لا يجب ألا تقود الناس إلى انتهاج واقعية لا تعطى قيمة إلا لما هو منتج وفعال، بل عليها أن تترك مجالا للشعر والجمال والأحلام.

أما الدنيوية فهي من جهة شرط للمجتمع التعددي، ومنة جهة أخرى فرصة للإيمان لكي يتحرر من جميع ارتهاناته الإيديولوجية.

وعندما يتحدث لاهوتي العلمنة عن مفهوم الله، يرى أنه لا يحسن أن نطرح مفهوم الله مجردين إياه من علاقته الوثيقة بالواقع الاجتماعي والسياسي وإلا حولنا الله إلى مجرد كلمة، لذلك يجب أن تحل السياسة محل الماورائيات في اللغة اللاهوتية ، ووظيفة اللاهوتي أن يحدد دور الإنسان عندما يصبح هذا الأخير استجابة لنداء الله، وأن يبحث لإيجاد السلوك البشري الصالح للحفاظ على إنسانية الحياة الإنسانية في العالم، ويؤكد كوكس أن الإنسان مسؤول عن العالم والتاريخ ويطرح سؤالا جوهريا وهو كالتالي " هل مسؤولية الإنسان هذه أسندها هذا الأخير لذاته أم أنه أعطيت له" يجيب: بأن الله ليس

[1] - Harvey cox , la cité séculière, Gasterman 1968-p48-50

الإنسان لن يكون مسؤولا إلا عندما يستجيب لإرادة الله والله لا يختزله الواقع الإنساني أو المشاريع الإنسانية.[1]

وفي هذا الإطار يتساءل كوكس عن دور المدينة العلمانية؟

يرى أن الكنيسة هي أولا شعب الله قبل أن تكون مؤسسة ، غايتها أن تفتح الطريق لفعل الله (في العالم)، تعلن أن الله يحرر، وتسعى لأن تكون الثقافة في خدمة الحرية، وهي التي تدمج الحرية والسؤولية لتجعل منها رمز البنوة الإلهية.

أما رسالة الكنيسة فهي في آن معا" التبشير " بيسوع المسيح إلها وربا مخلصا ومحررا "والخدمة" بالمصالحة وتضميد الجراح، ومد الجسور فوق كل هوة "والجماعية" بتأليفها جماعة متحدة ومنسجمة مع المدينة الأرضية.

وهكذا يمكن القول بأن "كوكس" وهو يبشر بالعلمنة (Sécularisation) إنما كان ينصب اهتمامه على نزع القدسية عن المدنية الأرضية المعاصرة، وتعزيز الإيمان على حساب الدين ، بل أيضا بتحطيم الأوثان المعاصرة التي اتخذت طابع القدسية كالجنس والمال خاصة ،وعبادة الشخصية والنجومية وكل مظاهر التمجيد والتأليه.[2]

ويؤكد كوكس على التمييز (وكما فعل غوغارتن قبله) ما بين العلمانية والعلماونية رافضا الأخيرة كونها على حد تعبيره" إيديولوجيا ورؤية للعالم منغلقة تتحول في وظائفها إلى ديانة جديدة".[3]

لم نستفد بالطبع في هذا البحث ، جميع المواقف اللاهوتية البروتستانتية المعاصرة المتعلقة بظاهرة العلمنة، لكننا تعرضنا بإيجاز لأهم ممثلي التيارات في هذا الشأن ، وكان من الطبيعي أن يطال النقد هؤلاء اللاهوتيين ، ليس فقط من الطرف الكاثوليكي بل أيضا من الطرف البروتستانتي نفسه.

---

[1]- Harvey cox , la cité séculière p87-130

[2]– ن.م.–:87–130

[3]– راجع المقال التحليلي النقدي للكتاب كوكس
René Marlie ; la cité séculière, dans la revue les études juillet –Août 1966 p.119-130.

لذلك سنعرض هنا موجزا لفكر لاهوتي أنغليكاني يشكل موقفا نقديا متزنا للاهوت العلمنة .

لقد قام في أواخر الستينات ، أسقف أنغليكاني، يدعى (ليسلي نيوبيغين) (Lesslie Newbigin) بوضع النقاط على الحروف في ما يسمى (لاهوت العلمنة) ولم تكن غاية هذا الأسقف إنكار قيمة كل ما كتب في سبيل إعطاء العلمنة شرعية لاهوتية، وبالتالي أقر من جهة بأن ظاهرة العلمنة هي واقع لامفر منه، كما أقر من جهة أخرى متفقا مع غوغارتن ومع كوكس، أن ثمة علاقة وثيقة ما بين تلك الظاهرة ووحي الكتاب المقدس حين يؤكد (أنت وحدك قدوس) إلا أن نيوبيغن يشير إلى أن فعل الإيمان المحرر والنقدي لا يمكن أن يمارس إلا على أساس يقين إيجابي ، وعلى أساس إقرار بحقيقة كلمة الله الحي وسلطانه وفعله.

" ليس بالنفي وحده– يقول نيوبيغن– يعيش الإنسان ، وليس بالشك وحده يكتسب المعارف، فإذا لم يستند النفي الى تأكيد غير مشكوك بأمره ،إنما يصبح هداما. هذا وإن قوة الروح النبوية في التقليد الكتابي– وهي روح لا تنبض إنما هي مستقاة من تأكيد عظيم، تأكيد حقيقة الله وقدرته وقداسته).[1]

لكنه يتساءل " يجب دائما أن نواجه السؤال التالي، على أية سلطة تستند القرارات التي يجب أن يتخذها الأفراد أجيب كمسيحي إن هذه السلطة هي إرادة الله وطبيعته الموحاة بيسوع المسيح"[2].

وما هو الشرط الأساسي الذي يجب أن يحققه الملتزمون بتحرير العالم حتى تزال عن العلمنة التباساتها وتحمى من أخطار العدمية والنزاعات الكليانية: (إن المسيحيين الذين انخرطوا حقا في العالم وألتزموا بتحريره هم أولئك الذين يعملون ويؤدون حسابا عن عملهم للذي هو سيد العالم، والذين يستجيبون لنداء من ناداهم أولا، ويجيبون من كلمهم

[1] - Lesselie Newbigin , une religion pour un monde séculier Paris – Tournoi, Gasterman 1967 p43-44
[2] - Lesselie Newbigin , une religion pour un monde séculier p79

أولا، ويخضعون لمن وحده جدير بأن نعطيه أنفسنا بالكلية وبدون هذه المرجعية ، يصبح الالتزام في العالم مطابقة للعالم وهذا طريق لايؤدي إلا الى الموت).[1]

لكن أين يوجد هذا الإله الذي هو ضمانة للحرية ولأصالة العمل ، يأتي جواب الأسقف على الشكل التالي: (نجده في عبادة الجماعة المسيحية ،حيث يتجلى لنا عبر الكلمة والأسرار المقدسة، عمل المسيح الفادي الذي يستجيب له المؤمنون بالعبادة والصلاة والذبيحة).

ومن خصائص العبادة أنها تعلن في آن معا، رفض العالم وتأكيده كيف؟ (رفض العالم ،لأن العالم صلب المسيح ، لأن التناقض ما بين الله والعالم قد تم، ولأن العالم أعطى فرصة ولادة جديدة ولأن العالم أعطى بالتأكيد رجاء جديدا).[2]

ويؤكد نيوبيغن بثقة وبدون أي تردد أن الحل للمشكلة التي يطرحها على المسيحيين سياق العلمنة يكمن في كلام يسوع في عشائه الأخير مع رسله قائلا لأبيه: (لا أسالك أن تخرجهم من العالم، إن كلمتك حق، كما أرسلتني الى العالم، فكذلك أنا أرسلتهم الى العالم وأكرس نفسي من أجلهم، ليكونوا هم أيضا مكرسين بالحق)[3].

ويختم نيوبيغن كلامه قائلا(إن الديانة الحقيقية لعالم علماني هي في هذا التكريس)[4].

لاهوت العلمنة الكاثوليكي:

تم الحديث عن لاهوت العلمنة البروتستانتي ، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: هل هناك لاهوت كاثوليكي تناول العلمانية؟ وما هو الفرق بينه وبين اللاهوت البروتستانتي .

نشير في البداية إلى أن اللاهوتيين الكاثوليك، ولو أن بعضا منهم تعرض لموضوع العلمانية لم ينتج أحدا منهم عملا منهجيا متكاملا يدخل مباشرة ضمن ما سمي بلاهوت

---

[1] −Lesselie Newbigin , une religion pour un monde séculier p.166−167

[2] − ن.م.ص :170

[3] − (يوحنا/15،17−19)

[4] −Lesslie Newbigin p171-167

العلمنة، لا بل أن الطابع الغالب على كتابات هؤلاء هو طابع ردة الفعل، أي الرد على لاهوت العلمنة البروتستانتي إما تعاطفا وإما رفضا قاطعا.

ومع ذلك فإنه من الممكن إيجاد لاهوتيين كتب بعضهم مقالات خصصت مباشرة لمعالجة العلمنة لاهوتيا، والبعض الآخر ألف كتبا لاهوتية في مواضيع تتعلق ولو بطريقة غير مباشرة بالعلمنة وانعكاساتها اللاهوتية.

ولاشك أن المجمع الفاتيكاني الثاني* الذي عقد ما بين (1962-1965) هو الذي فتح الباب ودعا اللاهوتيين الكاثوليك إلى المغامرة في قراءة (علامات الأزمة) ومنها معنى الإيمان ومكانة الدين، ومستقبل الله في عالم معلمن .

فما هي المنطلقات التي جاء بها هذا المجمع الفاتيكاني لتشكل أساسا لتفكير لاهوتي جديد.**

منذ القرن (18) تعود المسيحيون أن يحكموا بعنف على أحداث التاريخ المعاصر وينعتوها بالانحطاط والفساد، وفي المجمع الفاتيكي الثاني، أدخلت في الفكر اللاهوتي الكاثوليكي المعاصر نظرة معاصرة ونهجا جديدا في التفكير اللاهوتي والعمل الرعوي كما أدخلت نظرة جديدة الى التاريخ حيث كانت قراءة المسيحيين في أحداث التاريخ انسجاما ما بين بشرى الإنجيل من جهة وتطلعات البشر ورغبتهم في العدالة والمحبة والسلام واختصرت أهداف المجمه في أربع نقاط:

- تجديد الكنيسة في هدفها ورسالتها.
- تجديد الكنيسة

* خرجت الكنيسة الكاتوليكية من المجمع بمجموعة من الوثائق وهي كالتالي ، 4دساتير، دستوران عقائديان (الكنيسة) و(الوحي الالهي) ودستوران راعويان (الليترجية المقدسة) و(الكنيسة في عالم اليوم) وتسعة قرارات مهمة الأساقفة الراعوية في الكنيسة /خدمة الكهنة الراعوية وحياتهم التنشئة الكهونية/ التجديد الملائم للحياة (الرهبانية/ رسالة العلمانية/نشاط الكنيسة الإرسالي / الحركة المسكونية/ الكنائس الشرقية الكاثوليكية /وسائل الاعلام والبيانات عددها ثلاثة التربية المسيحية ، علاقات الكنيسة بالأديان غير المسيحية ،الحرية الدينية .

** قرارات المجمع المتعلقة بموضوعنا نجدها بشكل رئيسي في الدستور الراعوي (الكنيسة وعالم اليوم) وسنتعرض لها بالنفصيل فيما يأتي من الصفحات .

- الوحدة الكنسية
- علاقات الكنيسة بالأديان غير المسيحية وبالعالم عموما.[1]

واحتل مشروع الكنيسة مكان الصدارة في أبحاث المجمع لما له من أهمية في بناء الأسس اللاهوتية وانعكاساتها على سائر مضامين الحياة الكنسية ، وشكل هذا المشروع المنعطف الخطير وتسبب بأزمة حادة وضعت مصير الكنيسة وتوجه المجمع على المحك وكان التساؤل :هل تقوى الكنيسة على تصحيح نظرتها إلى ذاتها والى علاقاتها بسائر الكنائس(تلك النظرة التي كرسها التفكير اللاهوتي الكاثوليكي من المجمع التريدنتي (1545-1563) والمجمع الفاتيكاني الأول(1869-1870)* والإنفتاح على العالم المعاصر؟ أم تتمسك بأهداب سلطة زمنية وامتيازات إدارية.[2]

لقد اعتبر آباء المجمع، أن من واجب الكنيسة أن تتفحص في كل آن علامات الأزمنة وتفسرها على ضوء الإنجيل فتستطيع أن تجيب بصورة ملائمة لكل جيل على أسئلة الناس الدائمة حول معنى الحياة الحاضرة المستقبلية وحول العلاقات القائمة معها.

ونتيجة لقراءة علامات الأزمنة هذه يلفت المجمع نظر المؤمنين على أن هناك أوضاعا مستجدة على المسيحي أن يأخذها بعين الاعتبار وبجدية كبرى.

كما أن المجمع يرى في الاكتشافات العلمية الجديدة ليست خطرا على الإيمان ،بل على العكس تنقية لهذا الإيمان.

ولاحظ المجمع أن الثقافة المعاصرة محورها الإنسان ويدعو الى أن تكون هذه الثقافة في خدمة الإنسان خدمة حقيقية.

وفيما يختص (باستقلالية الشؤون الأرضية) وب(قيمة النظام الزمني) وب(سيادة الثقافة والعلوم) فإن المجمع يقر بشرعية كل ذلك إنما من جهة يحرص على أن لا تفهم

---

[1]- المجمع الفاتيكاني الثاني- دساتير- قرارات- منشورات المكتبة البوليسية ،ط:1-1992-ص16-21.

* وفق المجتمعان السابقان وقفة حذر وعداء من الكنائس المسيحية الأخرى ومن التيارات اللاهوتية والفكرية والثقافية المعاصرة، فمنذ التريدنتيني كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتبر نفسها هي وحدها كنيسة المسيح وجسده السري وكل ما سواها من كنائس مسيحية أخرى ومن مؤسسات إنسانية غير مسيحية كان في نظرها خارجا عن جسد المسيح.

[2]- المجمع الفتيكاني الثاني، بتصرف.

هذه الإستقلالية الداخلية على أنها استقلالية عن الله، ومن جهة يشدد على الفصل ما بين نظامين للمعرفة ، نظام الإيمان ونظام العقل.

وبعد أن يعترف المجمع بقيمة النظام الزمني (القيمة النسبية بالطبع) يدعو المسيحيين إلى المساهمة في بناء هذا النظام ،وعلى أن ينسجم مع الحياة المسيحية .

وأخيرا يعلن المجمع فك ارتباط الكنيسة بأي شكل من أشكال الثقافة وبأي نظام سياسي واقتصادي واجتماعي.[1]

ويمكن القول بأن المجمع الفاتيكاني الثاني كان مجمع انتقال بين فترة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ولت وفترة مستقبلية أراد المجمع أن يخلق من خلالها ذهنية جديدة منفتحة وتميز موقف المجمع الفاتيكاني الثاني بانفتاح على الكنائس الأخرى وعلى سائر الأديان وبانفتاح على مختلف الثقافات المعاصرة وعلى تاريخ البشر بمجمله، وقد حاول من خلال هذا كله أن يميز (علامات الأزمنة) أي أن يدرك عمل الله نفسه في مختلف أعمال البشر.

وبعد أن أرسى المجمع الفاتيكاني الثاني الأساس اللاهوتي (حضور الكنيسة في العالم) راح اللاهوتيون الكاثوليك يحاولون ترجمة لاهوت المجمع الفاتيكاني في تفكيرهم حول ظاهرة العلمنة، إلا أن جميع هذه المحاولات لم تصل الى ما وصل إليه لاهوتيو العلمنة البروتستانت، بل أدت محاولتهم الى إنتاج فكر لاهوتي وقف في نصف الطريق، أي سعى أن (تتكيف الكنيسة في العالم) وهناك من وقف صراحة في خط معارض لاتجاهات المجمع الفاتيكاني الثاني وباتجاه تقليدي لم يتخط روحانية المجمع الفاتيكاني الأول.

إلا أن معظم اللاهوتيين الكاثوليك انطلقوا من رغبة واحدة مشتركة ألا وهي في ظل الأوضاع الراهنة، حيث المجتمعات الحديثة استقلت عن الكنيسة ، كيف يمكن للكنيسة من جهة، أن تقبل بزوال صيغة (البابويه- القيصرية) وأن تقبل أيضا بأفول الصيغة

[1]- المجمع الفاتيكاني الثاني- بتصرف.

الغربية المسماة (العالم المسيحي) ومن جهة أخرى ،ألا تتنكر لطبيعتها الروحية ولرسالتها، وألا تذوب في المجتمع المعلمن كليا.

وتبقى من أهم المحاولات اللاهوتية التوفيقية أو التكييفية محاولة اللاهوتي الألماني "كارل راهنر"* الذي صب اهتمامه بصياغة فكر لاهوتي منهجي حول الكنيسة.

فماهي خلاصة فكره في هذا الشأن؟

رأى راهنر أن على الكنيسة أن تكون لديها الشجاعة بأن تنظر علمانيا الى العالم وأن تبقيه فعلا في علمانية، أي لا تحتال عليه فتضعه في نطاق ماهو قدسي وماهو مكرس، لذلك عليها أن تتخلى عن عدد كبير من مؤسساتها الكنيسة أو حتى تلك المسماة مسيحية والتي هي بالحقيقة وبمقتضى غاياتها دنيوية فتحرر العالم ،على هذا المستوى ،هو شرط أساسي لأن يتقدس فعلا وبالعمق، وعلى الكنيسة في الأزمنة الراهنة أن تقبل بأن تعتبر نفسهاجزءا من أجزاء المجتمع وليس في وضع احتكاري، والكنيسة حتى عندما تقر بوجود أشكال روحية مختلفة عن شكلها ولها قيمتها وفاعليتها في إنماء الانسان إنماءا كاملا يجب ألا تصبح (ملة) أو (طائفة) أو (شيعة) بل عليها أن تبقى كنيسة جامعة أو عالمية.[1]

ويقول راهنر : (أنه من النتائج الايجابية لمسار العلمانية أنه يدفع الكنيسة بأن تنتقل من شكل (كنيسة الجماهير) إلى (كنيسة الشراكة) وهذا يعني أن الإيمان المسيحي الحقيقي في عالم اليوم، لن يعطي الأولوية للانتماء الرسمي ، وللمشاركة العلنية والجماهيرية في الطقوس ولن يؤدي حتى للتطابق والتماثل مع شرعية أدبية موحدة أو فلسفة سياسية وحيدة ، وذلك يعني أن المسيحي مدعو أن يعيش شخصيا وجماعيا بالتسامح وفي مناخ التعددية والديمقراطية[2].

---

* كارل راهنر : لاهوتي ألماني ولد عام 1904 يتميز فكره اللاهوتي بانكبابه على تعميق الاتجاهات التي رسمها المجمع الفاتيكاني الثاني .

[1]– Karl Rahner , lexicon for theologie und kirck freiburg 1966 نقلا عن جيروم شاهين ، العلمانية والمسيحية ، بيروت ط1، 2001 ص:55.

[2]– جيروم ،شاهين: العلمانية والمسيحية ص:56.

إلا أن ذلك لا يعني إطلاقا أن تتخلى الكنيسة ككنيسة ، عن وظيفتها التعليمية (الدينية) والرعوية، أما فيما يختص برسالة الكنيسة في العالم، فإن هذه الرسالة تتوجه الى البشرية كافة والى الإنسان في كل أبعاده، إنما بطريقة نبوية فالطريقة النبوية تقضي من الكنيسة ألا تدير العالم عبر عقيدة شاملة أو عبر قوانين ودساتير تسنها للعالم.

وهكذا وبفضل العلمانيين الذين يتمتعون كليا بالاختصاص وبالحرية ولا تتحدد شخصيتهم بانتمائهم الكلي إلى الكنيسة – المؤسسة تتحقق قداسة العالم المتحرر من الكنيسة ويؤكد (راهنر) أن الكنيسة يجب أن تبقى يقضة في وجه العالم عند ما ينحو هذا الأخير عبر مشاريعه،لأن يعتبر نفسه وكأنه هو وحده مستقبل الإنسان بالمطلق وبالتالي يجب شجب العلمانوية وكل أشكال الكليانية.[1]

ويوافق (كارل راهنر) في توجهه المرتكز على تقديم قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني اللاهوتي الفرنسي الأب "ماري– دومينيك شوني".

وعلى الرغم من أن فكره يندرج ضمن تيار اللاهوت التوفيقي"فيما يتعلق بالعلمانية،فهو يعتبر من أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تفهما لظاهرة العلمنة وتعاطفا مع مضامينها، فما هي أهم مواقفه الفكرية في هذه المسألة؟

ينظر الأب شوني إلى ظاهرة العلمنة المعاصرة نظرة متفائلة لأنها تدفع الكنيسة بقوة الأمر الواقع إلى أن تخرج هذه الأخيرة من التركيبة الذهنية والمؤسسية للعالم المسيحي ويقول :" صحيح أن القسطنطينية وصيغة العالم المسيحي قد وضعا موضع اتهام وأن هذا الأمر قد شكل نوعا ما، مصيبة بالنسبة للكنيسة إلا أن ذلك شكل بالوقت نفسه رجاءا جديدا للكنيسة وشرطا لقيام مسيحية جديدة.[2]

فليس المطلوب في رأيه أن يتم تنصير الجماهير تنصيرا سوسيولوجيا ، بل المهم أن تحصل شهادة أكثر نقاوة للإنجيل باحترام استقلالية العالم، ومن هذا المنظور وأمام

[1]– جيروم ،شاهين: العلمانية والمسيحية ص:56.

[2]¨M.D.Chenu : L'évangile dans le temps ,cerf paris 1964 ; p :29

الحقول الجديدة في العالم الحديث (حقول الثقافة والاجتماع والسياسة) على المسيحي أن يصبح مبشرا بالإنجيل (وليس وصيا على حضارة نظمها هو).[1]

ويرى هذا اللاهوتي أنه من دواعي الغبطة (أن تجد ضمن هذه الحضارة التقنية،قطاعات كاملة في التنظيمات الاقتصادية ،وفي العلاقات الاجتماعية وفي التعايش الدولي، وفي القيم الثقافية استقلاليتها العضوية وكيانها المؤسسي القائم بذاته).[2] لأنه عندها يصبح العالم ، فسحة مهيأة لتقبل الإنجيل وإنماء الوجود المسيحي .

وقابل التيار اللاهوتي الكاثوليكي حاول جاهدا وانطلاقا من مناخ المجمع الفاتيكاني الثاني أن يلائم ما بين اللاهوت التقليدي وبين مضامين ظاهرة العلمنة المعاصرة ،هناك تيار آخر محافظ لم يقبل بانفتاح المجمع المذكور على العالم، وخشي أن تفقد الكنيسة مكانتها في المجتمع.

ويبقى من أهم ممثلي هذا التيار المحافظ هو الكاردينال الفرنسي"جان دانييلوا"[*] حيث وقف في الخط المعارض الذي مثله كل من "كارل راهنر" "والأب شوني" والمرتكز على توجات المجمع الفاتيكاني الثاني، فأعلن بصراحة وجوب إعادة تقديس العالم وإعادة تكريسه.[3]

والواقع أن اختلاف المواقف اللاهوتية من ظاهرة العلمنة بين مؤيد ومعارض لا ينفي حقيقة مفادها أن التصور الديني للعالم لم يعد الإطار المرجعي الأساسي للفكر بل أصبح هناك تصور آخر للعالم خاليا من كل ما هو مقدس ومتكون من عناصر قابلة للتركيب والاستعمال قد أزاحه وأخذ مكانه.

---

[1] - M.D.Chenu : L'évangile dans le temps ,cerf paris 1964 ; p :252-33

[2]– المرجع السابق،ص: 299

[*] ولد في فرنسا عام 1905 وتوفي عام 1974 ،درس في الجامعة الكاثوليكية في باريس ، ورقي في العام 1969 الى رتبة كاردينال، اشتهر بموافقة المحافظة وكانت أفكاره على الرغم من شعبيتها مثار جدل ، حمل الشعار الذي حمله قبله الشاعر الفرنسي الكاثوليكي " شارل بيغي " الذي كان ينادي (بديانة شعب)"Religion d'un peuple"

[3]– أنظر: J.Daniello, le peuple chritien selon peguy .in étude septembre 1965 l'oraison problème politique A.Fayard.Paris 1965.

ذلك أن الإرث الفلسفي للعقلانية قد أثر في تطور السوسيولوجيا الدينية في المجتمعات الغربية وأيضا التجانس الخاص بتاريخ المواجهة بين الكنيسة والدولة في هذه المجتمعات وهذا كان أقوى من المحاولات اللاهوتية التوفيقية والدليل على ذلك كون البحوث المقامة حول الوضعية الدينية في هذه المجتمعات قد قدمت إثباتا أساسيا لمسلمة تراجع الدين في العالم الحديث.[1]

كل هذه المؤشرات تكتشف عجز الدين عن القيام بدور فعال في المجتمع المعاصر ومن الأسئلة البالغة الأهمية في هذا السياق ،السؤال التالي:

كيف يمكن للدين أن يصمد في عالم تسود فيه الطرق العلمانية للفهم، ويلعب فيه لا العلم فحسب ولكن أيضا الفلسفات العصرية والتاريخ وعلم الأخلاق والجماليات الدور الرئيسية نفسه الذي كانت تقوم به الديانات في المجتمعات التقليدية؟

إن السنوات الأخيرة أعادت المسألة الدينية إلى وعي الناس والى ضرورة الاهتمام وتحليل الظاهرة الدينية ، ولئن كانت فترة الخمسينيات والستينيات تعتبر فترة الثقة في الإيديولوجيا العصرية وقدرتها على التنمية والخلاص ، فإن السنوات الأخيرة سجلت عودة المقدس وبقوة .

لقد جابهت الإنسانية في أواخر هذا القرن عدة أزمات مختلفة كأزمات الغذاء والطاقة والفقر والحروب، وما من شك في أن مثل هذه الأزمات قد حدت من قدرة البشر على إيجاد حلول ناجعة لمجمل المشاكل المطروحة عليهم حتى عند ما تكون هذه المشاكل واضحة تمام الوضوح، وبالتالي فإن الإيديولوجيات العصرية التي ماانفكت تحمل شعارات التحديث والعلمنة والتي اضطلعت ببناء الدولة العصرية ونحث معالم المجتمع الحديث وضمان الرفاهية دخلت هي نفسها في أزمة حادة .

وكرد فعل على ذلك ، حصل نوع من التفاعل بين الدين والسياسة اتخذ طبيعة مختلفة الأبعاد، وكمثال للصيغ البناءة التي اتخذتها علاقة التفاعل بين الدين والساسة.نذكر ما يحصل في أمريكا اللاتينية حيث يعتبر القسيس أن جوهر التدين الحقيقي هو التضامن

[1]- الدين في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ،ط:بيروت 1990 بتصرف.

مع الفقراء والوقوف في صف المحرومين بدلا من الذهاب إلى الكنيسة واختزال التدين في جملة من الشعائر والطقوس التعبدية ،وعوضا عن الاكتفاء بالإيمان والتعبد، فإنه من الأفضل أن يقع التعبير عن التقوى عبر المساهمات لمصلحة المجتمع* .

وهكذا ظهرت أشكال مختلفة لعلاقة الدين بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية كما أن التعددية السائدة في المجتمعات العصرية أنتجت أشكالا جديدة للتدين غزت المجال الاجتماعي الذي أصبح متحررا من الديانات التاريخية وتجاوز أشكال الممارسة التقليدية.

وعن هذا الشكل الجديد من التدين سيكون موضوع بحثنا القادم، مع الجماعة الكاثوليكية (سانت إيجديوا) والتي جمعت ما بين الإيمان وممارسة الطقوس التعبدية إلى جانب مساهمتها الفعالة لمصلحة المجتمع المدني مع الاحتفاظ بكيانها العلماني بعيدا عن أي سلطة أو وصاية كنسية.

* كل ذلك يتم في إطار ما يسمى (لاهوت التحرير).

الفصل الثاني

المبحث الثاني:

النموذج الغربي للعلمانية الجديدة

جماعة سانت إيجديو

أصبحت قضية فصل الدين عن الدولة أو ما يسميه الغرب فصل الدين عن الكنيسة من القضايا المسلم بها في الفكر الغربي، ومن ثم في الفكر العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية وحين تحرر الإنسان الغربي من سيطرة الكنيسة والإقطاع تحرر من سيطرة الخرافة والدجل والظلم ورافق ذلك بزوغ فجر التقدم الصناعي والثورة العلمية التقنية وحين أخذت الشعوب الغربية بالمنهج العلماني الجديد في إطار المستجدات العلمية والاجتماعية والفكرية والسياسية الجديدة كانت نتائج ذلك :

التقدم العلمي الهائل والرخاء الاقتصادي الواضح الذي أصبحت تعيشه الشعوب الغربية والاستقرار السياسي وذلك باستبعاد صور العنف وأشكاله في التعبير عن الآراء والتوجهات السياسية،وترسيخ آليات وأخلاقيات وقوانين وأعراف للحوار، وتوفير ضمانات للحريات السياسية إضافة إلى احترام حقوق الإنسان وحرياته، وبالذات الإنسان الغربي وبالمفهوم الغربي أيضا للحقوق والحريات ، وبالمقابل انتشر الإلحاد بجميع صوره وأشكاله في حياة الغربيين ، نتيجة لهزيمة الكنيسة والدين في مواجهة العلمانية مما أدى لتحييد الدين عن شؤون الحياة العامة، واقتصاره على الجانب الاختياري في حياة الإنسان.[1]

ولقد لاحظ دوركهايم مختلف أشكال تراجع الدين في المجتمعات الحديثة الغربية منها: فقدان الكنيسة سلطتها الدنيوية وفصلها عن الدولة ،وانحسار الجماعات الدينية في جماعات تطوعية أو متطوعة، عدم قدرة المؤسسات الدينية على جعل المؤسسات المدنية تطبق القواعد المتعلقة بالتدابير الدينية ، وبصفة عامة عدم قدرة هذه المؤسسات على مراقبة حياد الأفراد وغرابة المثقفين بالنسبة الى الكنيسة وعدم قدرة هذه الأخيرة على إنتاج نخبة مثقفة .

غير أن تقلص المجال الاجتماعي لم يكن نتيجة انتصار العلم كشكل أرقى للمعرفة لأنه كما لاحظ ذلك بكيرنغ(w. pckering) إذ كان المجتمع بحاجة إلى الدين فإن الدين هو الذي كان سيبتلع العلم[2].

[1]– مجلة البيان ، العدد 161 أبريل 2001

[2]– الدين في المجتمع الغربي ص130.

إن دنيوية (Sécularisation) المجتمعات الغربية الحديثة تكمن في تفكك النسيج الاجتماعي الذي كان الدين رابطته الأساسية ، وتفكك أشكال التضامن التقليدية والانحلال الاجتماعي للمثل العليا الدينية يشكلان عمليتين متداخلتين الواحدة في الأخرى: يتراجع الدين لأن التغيير الاجتماعي يحدث الإمكانية الجماعية لخلق مثل عليا جديدة، وأزمة المثل العليا الدينية تفسح الروابط الاجتماعية، ولكن ما يستخلص من هاتين العمليتين هو التحويل الذي يتعرض له الدين وليس تراجعه، لأنه ليس باستطاعة العلم أن يملأ وظائف الدين التي ليست مجرد وظائف معرفية، فالعلم لا يجيب عن الأسئلة التي مازال يطرحها الناس حول من هم وحول مكانتهم في الكون، إنه لا يسلط الضوء على الرهانات الأخلاقية للحياة الفردية والجماعية ،العلم ليس بمقدرته إذا (لأنها ليست وظيفته) الاجابة عن الحاجات الطقوسية المرتبطة بكل حياة اجتماعية، ولهذا فإذا كان الدين قد توقف عن كينونته كلغة شمولية حول التجربة الإنسانية في المجتمعات الحديثة، فهو ما يزال يعتبر عنصرا أساسيا لمجتمع المستقبل، هذا هو التناقض الذي خرج به دوركهايم عندما تصور ما يمكن أن يكون عليه (دين الإنسان) كبديل وظيفي للديانة التقليدية والذي يمكن أن يستمر في التعبير عن نفسه فيها بكيفية رمزية واستعارية.

هذه الديانة الجديدة الحاملة للقيم الإنسانية لا تتطلب أية كنيسة ولا أي هرطقة مراقبة ولا أي تنظيم، وهذا يعني ظهور أشكال جديدة للتدين تغزو المجال الاجتماعي الذي أصبح متحررا من وصاية الديانات التاريخية.[1]

وبناءا على كتابات ارنست ترولتش(Ernest Troeltsch) وروبرت بيلا (Robert Bellah) يمكن التمييز بين ثلاثة أنماط من التدين اليوم، (الكنيسة والطائفة والحركة).

1- نمط الدين الرسمي:

من ثوابت الكنيسة أو الدين الرسمي بصفة عامة، القبول بالنظام الاجتماعي القائم مع محاولة اختراقه والتأثير فيه من خلال منظومة القيم الدينية التي تسعى (الكنيسة) إلى

[1]- الدين في المجتمع الغربي .ص130.

تكريسها، فالدين الرسمي يقبل أساسا النظام العائلي الموجود، كما يتبنى النظام السياسي القائم والهيكل الطبقي السائد ويعمل في الوقت نفسه على جعل هذه النظم والهياكل القائمة تتماشى مع المعايير الأخلاقية المتولدة من النظرة الدينية إلى الأشياء.

بعبارة أخرى يهدف الدين الرسمي الى توظيف كل المؤسسات والهياكل والنظم القائمة لمصلحة المنظومة الدينية الرسمية ،وعملية التوظيف هذه هي أساسا نوع من إضفاء الشرعية على النظام السائد، بل أكثر ذلك تبنيه بطريقة أو أخرى، أما مدى نجاح عملية التوظيف هذه فيتوقف على درجة الحرية التي تتمتع بها المجموعة الدينية تجاه المؤسسات الأخرى، وبخاصة تجاه مؤسسة الدولة ، فقرب الدين الرسمي من مراكز السلطة يمنحه الفرصة لتنفيذ الكثير من أهدافه ، وفي المقابل يؤدي القرب من السلطة الى المهادنة والفساد وهنا بالتحديد تكمن مفارقة شائكة، بدلا من أن ينحث المجتمع بحسب التصور الديني فإن الذي يحدث العكس ،إذ يتشكل وفق صورة المجتمع.[1]

2- نمط الدين الطائفي'Sect':

وهو النمط غير الرسمي الذي يحاول تجنب مهادنة المجتمع، كما يحاول ضمان الاستقلال اتجاه الدولة وتجاوز العلاقات الاجتماعية السائدة، فيرفض المؤسسات القائمة الاجتماعية منها والسياسية وينزع الى الحفاظ على حد أقصى من الحرية تجاه المجتمع الرسمي.

ولا يعني ذلك أن هذا النمط يريد التمرد على النظام القائم أو يرمي الى تغييره بطريقة جذرية ومباشرة ،بل إن كل ما يسعى الى تحقيقه هو تجنب التأثر بمحيطه والمحافظة على صفائه الذاتي وطهارته والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يلوث صفاء العقيدة والسلوك وكل ذلك من أجل تحقيق أهداف دينه.

والحقيقة أن الطائفة تمارس تأثيرا غير مباشر على المجتمع من خلال تقديمها نموذجا حياديا بديلا، يكون عادة أكثر عدلا وانسجاما من النموذج السائد في هذا المستوى ،ويمكن اعتبار الدين الطائفي بعدا إيجابيا في المجتمع ، ولكن في الوقت ذاته يعمل هذا

[1]- الدين في المجتمع الغربي ص20-21.

النمط من التدين المتمذهب على تعزيز الانسحاب والتقوقع داخل الذات والاكتفاء بالخلاص والطهارة .وهنا يكمن الجانب السلبي لهذا النمط.[1]

3- نمط الدين المتعلق بحركة دينية:

ويتعلق هذا النمط الثالث بالحركات الدينية، وهي حركات تنطلق من الدين الرسمي، كما قد تنطلق من الطائفة (الدين غير الرسمي) ومن خصائصها أنها تتمحور حول زعيم ديني ملهم.

وما يلفت الانتباه في الحركات الدينية هو أنها تعمل على صوغ رموز جديدة وجملة من التصورات الخاصة بها كما أنها تعمل على تعبئة فئات متعددة وشرائح اجتماعية مختلفة بقصد القيام بتغييرات وتحولات مصيرية .

والملاحظ أن نشأة الحركات الدينية وظهورها كثيرا ما كان متلازما مع الأزمات التاريخية التي يتعرض لها المجتمع ولاشك في أن هذا التلازم يكشف عن العلاقة الهيكلية بين هذه الحركات وطبيعة الفترة التاريخية التي نشأت فيها[2]0

إن التغيرات لتي تعمل على تحقيقها الحركات الدينية ليست فحسب تغيرات سياسية واقتصادية وعقدية ،بل هي وفي الأساس تغييرات تهم جملة التطورات العامة والرموز السائدة.

وكل حركة دينية تقوم بصوغ هذه الرموز ،لا من عدم طبعا ولكن انطلاقا من إعادة قراءة التراث، ومثل هذه الحركة أكثر استعدادا وحرية وإبداعا للأخذ من تقاليد الآخرين وتراثهم، من ممثلي كل من الديانات الرسمية ومن نمط التدين الطائفي فالحركات الدينية كنمط تدين محدد، قادرة أكثر من النمط الدين الرسمي على الاستفادة من الإرث الفكري والاجتماعي كما أنها قادرة على توظيف ذلك من أجل القيام بعمليات التغيير الممكنة.[3]

---

[1]- الدين في المجتمع الغربي ،ص:21

[2]- الدين في المجتمع الغربي.ص22-23.

[3]- ن.م.ص23.

وهذا النمط الأخير ،يدخل أساسا في صلب موضوعنا، حيث سندرس نموذج حركة غريبة وهي تجربة جماعة القديس (سانت إيجديوا) والتي جاءت استجابة لمرحلة تاريخية مهمة من تاريخ المجتمع الغربي، وشهدت محاولة الجمع والتوفيق بين المسيحية والعلمانية في إطار واحد فكانت بمثابة رد فعل تلقائي قام به ثلة من الأرستقراطيين الايطاليين، للمحافظة على المقومات الثقافية، ومعالجة المشكل الرئيسي للهوية في المجتمعات الغربية والتي كان الدين أساسها الرئيسي وذلك بعد أن فقد الإطار المؤسساتي (الكنيسة) الكثير من فعالية في المدن المعاصرة ، فكان من البديهي التفكير في أشكال أخرى للحضور ، وفي تجارب رائدة بينت فعلا عن أهميتها وكفاءتها .

وفي هذا السياق يطرح السؤال التالي حول، الأطروحة الأساسية التي بنت عليها الجماعة وجودها؟ وما هو المنهج الذي اتبعته؟ وما هي أهم المبادئ التي حددت مسارها؟ والى أي حد استطاعت تحقيق الهدف الذي تم تسطيره منذ البداية ،خدمة المسيحية والعمل على انتشارها دون الخروج من الإطار العلماني.

عرفت جماعة سانت إيجديو* النور غداة الجمع العام للفاتيكان الثاني** سنة 1968 ويوجد مركز الجماعة بقلب روما حيث أخذت الجماعة اسم المكان الذي استقرت فيه وذلك سنة 1973 وتم الاعتراف بها من قبل الكرسي الرسولي سنة 1986، كحركة عالمية شعبية علمانية يساهم فيها اليوم أكثر من أربعين ألف مشارك متشبعون بالفضيلة والانجيل ينتمون إلى أكثر من ستين دولة ساهمت مبادراتها المختلفة والمتنوعة ذات البعد الدبلوماسي في تسليط الضوء على هذه الجماعة.

- تدخلاتها الفعالة لتقريب السلام في الموزمبيق.
- مجهوداتها الفعالة لإيقاف حرب دموية دامت أربعة وثلاثين سنة أودت بحياة مائة وخمسين ألف قتيل .

وكل هذا لا يمثل سوى جانب متواضع لنشاطات متنوعة مكرسة كلها لخدمة جهود السلام ،السلام بين الأمم والسلام بين المجتمعات وذلك بمحاربة الفقر والتهميش، وكذلك السلام بين الديانات بالرغم من انتشار العنف والأصولية في كل مكان.

وبمرور أربعة وثلاثين سنة على نشأة الجماعة فقد حان الوقت للتعرف عليها خاصة أنها تعتبر في وضعه خارج عن كل قاعدة أو ضابط ، إلى جانب نجاحها المتميز في الابتعاد عن أي محاولة للتصنيف ، حيث أنشأت هذه الجماعة من قبل مسيحيين كاثوليكيين وتضم في الوقت نفسه مسيحيين بروتستانت وأرثوذكس.

والجماعة رومانية الموطن، معروفة ومعترف بها من قبل أسقف المدينة الرومانية(يوحنا بولس الثاني)، استطاعت الانتشار في أوربا والعالم وكذا في المناطق التي

---

*سانت إيجديوا: نسبة إلى القديس سانت جيل، الذي عاش حياته ناسكا يقال بأنه ولد في أثينا في عائلة من النبلاء وأنه صانع معجزات منذ صغره (يشاع في هذا أنه أشفى عاجزا عندما أحاطه بمعطفه).ذهب إلى فرنسا وعاش كناسك ،التقى بالملك (Wasigoth Womba) الذي بنى له ديرا، أهداه إلى البابا عند زيارته إلى روما وبعد حملة إسلامية وضع تحت حماية (Charles Martel) وأنشأ مركزا أصبح أهلا بالسكان ومنه انتشرت عبادة سانت إيجديوا طيلة القرون الوسطى ،انظر :

CF.P.E d'éverlange ,histoire de Saint- gilles Marseille lafitle 1980

** يردد مسؤولوا الجماعة بأنهم أبناء الفاتيكان الثاني وبدونه لا يعرفون ماذا كانت ستكون عليه مسيحيتهم حيث فتح المجال لخلق ذهنية جديدة منفتحة في التعامل مع العالم المعاصر.

لا يعترف فيها بسلطة البابا ويرجع السبب على أنها أنشأت على قراءة جديدة ومتطلبة في نفس الوقت للكتاب المقدس وترفض كل محاولات الإكليروسية (التشيع للقس) وتريد أن ترتقي بالنزعة الإنسانية مع احترام وفي الوقت نفسه الثقافات المختلفة وتداخلها.

وللتعرف أكثر على هذه الجماعة التي لا تعترف بالخوف من أي مخاطر ولا تحب أي نوع من أنواعه اخترنا أن نسلط الضوء على مؤسس هذه الجماعة (أندريا ركاردي) جامعي ومؤرخ، وهو واحد من الرجال الذي يقدم بعضا من الأسباب القوية للبقاء مرتبطا بالمسيحية حيث أنشأ سانت إيجديوا مع مجموعة من أصدقائه* وهو لا يزال طالبا بثانوية (Virgile) وجعل منها جماعة متميزة متجذرة في التقاليد الرومانية ومرتبطة بقوة بأسقف مدينة روما ولكن بدون أن يعني ذلك تنكرها أو اختفاءها وراء أي سلطة دينية، فهي تتحمل كامل الاستقلالية وكامل المسؤولية في مبادراتها وتوجهاتها والمسار المرسوم لهذه الجماعة يسمح بالفهم الجيد للدوافع والأهداف والوسائل لرجل وأصحابه ساهموا بقوتهم وشجاعتهم في الدفع بعيدا بقيم الكنيسة والإنسانية دون أن يخرجوا من إطارهم العلماني.

أندريا ريكاردي:

من أسرة برجوازية متوسطة ولد أندريا ريكاردي بروما من أبوين رومانيين وتنتمي عائلة أبيه الى منطقة (Ombrie) وكان لهذه المنطقة تأثير قوي في شخصيته.حيث يعتبرها منطقة مختلفة عن روما بتقاليدها الخاصة والقديمة وبمناظرها المحاطة بحقول الزيتون مع احتفاظها بذاكرة القديس * (François d'assis)

يقول أندريا ركاردي: (قديسوا منطقة (Ombrie) كان لهم دور أساسي في مسار الجماعة فالقديس (François d'assis) يمثل بتاريخه الفهم الجيد لإمكانية أن يكون الإنجيل مصدرا للتجديد في حياة المسيحي، وبالرغم من أن نموذج هذا القديس قد تبلور في العصور الوسطى في واقع مسيحي بأكمله، والواقع اليوم مختلف في ظل هذا العالم

* الى جانب أندريا ريكاردي هناك أعضاء بارزون في الجماعة أهمهم (Mario Marazitti) يعمل في أحد أهم القنوات الايطالية (Mario giro) مسؤول العلاقات الدولية في الهيئة النقابية Gisl و(فيتورريو إناري) أنظر: Revue l'intelligent n°/Octobre/ Novembre ed2003

* مؤسس أخوية الفرنسيسكان.

المعلمن حتى وإن تحدثنا أحيانا عن وضعيات متشابهة للكنيسة في مراحلها الأولية ، فإن ثقافتنا العلمانية تدرك جيدا ما هي الكنيسة وما هي المسيحية ، فلكل عصر طابعه الخاص ولهذا لابد من الإستمرار في التجديد).[1]

حصل أندريا ريكاردي على شهادة القانون سنة 1974 وكان موضوع أطروحته في القانون الديني بعنوان (المجتمع المدني والمجتمع الديني عند هنري ماريت (Henri Maret) وفي سنة 1976 نشر كتابا تناول فيه بالدراسة والتحليل موضوع الكاثوليكية الفرنسية إبان ق19و20[2] .كما نشر عدة مقالات اهتمت بالموضوع نفسه وله مؤلف آخر بعنوان مدينة روما نشر سنة 1979 وتحدث فيه عن التاريخ الكنسي لمدينة روما.[3]

وخلال سنوات تجاوزت شهرة أندريا ريكاردي الحدود الإيطالية على رأس جماعة سانت إيجديوا حيث نجح هذا الروماني المولد في رسم جديد للعلمانيين الكاثوليك.

وهذه الشهرة لأندريا ريكاردي ، تعتبر حافزا قويا للاهتمام والفهم الجيد لهذا المسار المتميز لهذا الايطالي ، ومعرفة الأسباب الدافعة وراء تأسيس ونشأة الجماعة. ونقدم اليوم تحليلات هذا الأستاذ للتاريخ المختص في الكاثوليكية ونستمع خصوصا لشهادة المثقف الذي انخرط في حركة اعتبرت شاذة داخل الكنيسة.[4]

يقول أندريا ريكاردي: (لقد تناقشت مع أصدقائي وقلت لهم ماذا ينفع تغيير المجتمع إذا لم نستطع تغيير الإنسان نفسه، بالنسبة لي كنت أفكر بأنه يجب تغيير الانسان ، وفي هذا السياق ،كنت أقرأ الإنجيل، حيث اشتريته وأنا في الخامسة عشرة من العمر واحتفظت به في المنزل ، ولكني قرأته وأنا مازلت بعيدا عن الكنيسة وبالنسبة لي الإنجيل كان ذلك الكتاب القديم، كتاب الإيمان وكلام الرب بمعنى أنه كان شيئا مميزا يسمح بتغيير الإنسان ولهذا كنت أفكر أنه إذا استطعنا تغيير الإنسان نكون بذلك قمنا بعمل ثوري، فوحدهم

[1] −Andrea Riccardi : Rome et le monde entretien avec Jean- Dominique Durand Rigis ladous Paris 1996 p.1-2-3

[2]– ن.م.ص:31

[3]–ن.م.ص:13.

[4] − Andrea Riccardi : Sant Egidio l'evangile au de là du frontières entretiens avec Dominique christ p5 saint-Amond- Montrond 2001

الرجال الجدد قادرون على خلق عالم جديد وفي هذا الوقت من تفكيري المتعمق في حقيقة الإنجيل عرفت مجموعة من الشباب في ثانوية(Virgile) فكانت البداية حيث بدأ الإنجيل يجذبني ولكن مع البقاء خارج سلطة الكنيسة، التي كانت تبدو لي بعيدة نوعا ما، ولم تكن تعجبني الرعية ولا الحركة الكاثوليكية ولهذا قمت بإنشاء أول مجموعة مكونة من الطلبة في فبراير 1968.)[1]

ويضيف رأيت عن قرب أزمة الرهبنة فيما بعد انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني وتعرفت في هذه المرحلة على رهبان (بيندكث) تحدثت معهم عن الإنجيل وعن طقوس العبادة في الديانة المسيحية وعن المؤسسات الرهبانية وعن الكنيسة وأزمة المجامع الدينية وكنا نفكر أنه إذا كنا مسيحيين حقا فإن العالم سيتغير وبأن الكنيسة كانت ستنظم أو سيعاد تنظيمها من جديد والحقيقة أن الكنيسة الرسمية لم تكن تعجبنا كثيرا لأنها كانت مندمجة نوعا ما في السلطة وأيضا لأنها كانت بعيدة عن مكان تواجدنا بروما، ولهذه الأسباب كنت أحس كشخص له مسؤوليات وليتمكن من مواجهتها عليه أن يتمتع بنوع من الاستقلالية كما كنت أفكر بأن مجموعتنا الصغيرة عليها أن تدخل لمجال الحياة وأن تنتشر عبر شوارع روما وأن يكون لها تواجد في كل مكان).[2]

ولقد صاغت الجماعة مبادئ عامة رسمت مسارها المتميز، نوضحها كالتالي لتحديد ملامحها وعناصرها والتعريف بها:

1- الصلاة*:

قلب جماعة سانت إيجديو وأول أعمالها، وكل حياة الجماعة ناشئة عن سماع أقوال الرب وعن الصلاة، وترى الجماعة أنه في ظل هذا العصر العجيب بعقله وتفكيره واتجاهاته، يحتل الايمان لسوء الحظ المرتبة الدنيا في تقرير مصير الإنسان، ولهذا كثرت الحروب والقلائل والأوبئة، وفي هذا العصر الذي ابتعد فيه الإنسان عن رسالته الحقيقية وزاد زيغانه تقف الصلاة لتكون ركيزة راسخة ورجاءا وطيدا ونورا وحيدا يهدي ودواءا

[1] -Andrea Riccard ;Rome et le monde p8-9.

[2] - Andrea Riccard ;Rome et le monde , p12-13.

* كل المعلومات المذكورة هنا مأخوذة من موقع الجماعة عبر الأنترنيت www.Sant Egidico.org

شافيا من القلق والاضطراب وحياة لا تعرف الظلم والقسوة والخطيئة والحروب، بل الطمأنينة النفسية والرجاء والمحبة والعدل والإخاء والمساواة ولهذا أرادت الجماعة أن تضفي على نفسها طابعا دينيا بالالتزام والتشارك الدقيق بين الصلاة والعمل الإنساني ووضعت في مركز اهتماماتها كلمات الرب، وكل التزاماتها المتعددة تتغذى من هذه الصلاة اليومية، وفي كل مساء تفتح أبواب الكنيسة للجميع في ساحة سانت إيجديو وذلك لخلق إطار من الترابط والإخاء والتعاون.وتصلي الجماعة من أجل شكر الرب ومن أجل الفقراء والمحرومين ومن أجل أن يتوجهوا نحو وجه السيد المسيح وليتعلموا منه حبه.

وبهذا تكون الجماعة قد تحدث الفكر الضيق الذي كان يسود أجواء الكنيسة وقلبت آثاره وشحذت أفكار المؤمنين حتى يتساءلوا ليصلوا كما صلوا هم الى عمق الإيمان، وذلك أن الصلاة ليست مجرد كلام، إنها أكثر من ذلك، إنها عبارة عن كلمات تسمح للمريد بالدخول في علاقة مع المسيح ومع الأب، إذا الصلاة هي قبل كل شيء طريقة وجود والصلاة الجماعية تستقبل الصرخات والاستدعاء والإلهام والرغبة في السلام وفي التداوي واطمئنان الإنسان، والصلاة لم تكن يوما خالية من المعنى لأنها تصعد باستمرار إلى الرب الإله من أجل أن يتحول القلق إلى أمل والدموع إلى فرح واليأس إلى وحدة والوحدة إلى تجمع وترابط وإخاء ومن أجل أن تحل سكينة الرب وسط عالم الإنسان وترى الجماعة أنه لاشيء ممكن بدون الصلاة المصحوبة بالإيمان، فالصلاة تتحدى عجز الرجال وهي سلاح قوي في يد المؤمنين لأنها تقضي على الشر وتقوم بنشر الحب والسلام.

2- التواصل مع الإنجيل :

قلب الحياة بالنسبة للجماعة وهو مفتوح لمن يبحثون عن هدف لحياتهم فالإنجيل أعطى لحياة الجماعة معنى روحيا وأيضا مرجعية تدفعهم في إطار من الأخوة والترابط على الخروج من الذاتية والتوجه نحو الآخرين نحو من يحتاج إلى المساعدة من الفقراء والمهمشين[1].

[1] . Andrea Riccardi : Sant Egidio l'evangile au de là du frontières- p26

والخطاب حول التواصل بالإنجيل بمعنى التبشير هو على مستوى عال من الأهمية لأنه يمثل المهمة الأساسية للكنيسة وللمسيحيين وترى الجماعة أن هذا الخطاب ينبغي أن يستمر ولكن ليس على حساب الآخرين أو أن يعايش كنموذج تجاري.*

ذلك أن التواصل بالإنجيل يجب أن يكون في ظل من الاحترام الإنساني الهادف والمتبادل، وهو يتطلب كثيرا من الجهد والصبر وترى الجماعة في هذا الإطار أن التقاليد العائلية والاجتماعية الحالية هي غير قادرة وغير مؤهلة لإيصال هذا الإيمان، وتتفق مع قول البابا يوحنا بولس الثاني : (مهمة كهذه لا تزال في بدايتها) .

وتظهر أهمية التواصل مع الإنجيل بالنسبة للجماعة من خلال هذا النموذج المقتبس من القوانين المنظمة للجماعة حيث تقول المادة رقم2: الهدف الأساسي للجماعة هو التواصل بالإنجيل(التبشير)، مهمة أساسية للكنيسة والجماعة واعية بكلمات الرب المسيح (يجب علي أن أبشر سائر المدن بملكوت الله لأني لهذا أرسلت) وتجعل شعارها قول الرسول بولس (فإذا بشرت فلا فخر لي ،لأن التبشير ضرورة فرضت علي، والويل لي إن كنت لا أبشر)[1].

والجماعة تعيش هذا الالتزام خصوصا مع من هم بعيدين عن عالم الإيمان لتستطيع تكوين عائلة متميزة تتسم بالإخاء والتراحم المتبادل داخل ملكوت الرب.

3- التضامن مع الفقراء:

أنشأت جماعة سانت إيجديو انطلاقا من التوجه الروحي والالتزام الاجتماعي وكانت من بين القيم الأساسية التي سعت الجماعة إلى تطويرها بناء وترسيخ ثقافة التضامن كقيمة من القيم المسيحية التي ينبغي أن يعيشها كل مسيحي وذلك ضد كل أنواع العنف، وتجربة الجماعة في هذا المجال كانت تجربة مجموعة من الطلبة أتوا من وسط

* في إشارة لبعض الطرق التبشيرية أو بعض الجماعات وخاصة الأمريكية ولقد صرح أندريا ريكاردي في أحد اللقاءات الصحفية بأنه غير مرتاح لانتشار هذا النوع من المسيحية ، مسيحية بوش والبابا البرتيستانتي ، وهي مسيحية تنتشر اليوم بسرعة مهولة خاصة في منطقة أمريكا اللاتينية التي يعتبر كل سكانها كاثوليك وكذلك في إفريقيا وهي التي تحاول أن تحول النزاعات الى حروب دينية .

[1] -Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p40..

يتمتع بامتيازات عالية واكتشفوا في مدينة روما وجها مختلف، وجها تمثله الضواحي المهمشة والفقراء وطموحهم كان في إنشاء مسيحية مدنية بمعنى إعادة قراءة أقوال الإنجيل في واقع المدينة المعاصرة[1] وفي هذا الصدد يقول أندريا ريكاردي: (يعتبر الفقراء والمهمشون هم أول ضحايا العنف الاجتماعي أي العنف الذي يمارسه المجتمع، وهذا العنف يمثل للأسف أحد المشاكل الكبرى لكثير من مدن العالم ، ويشهد العالم اليوم سباقا محموما لحماية الذات، وإذا كان الأغنياء يستطيعون حماية أنفسهم بإنشاء مجالات محمية تتمثل في الحواجز والشرطة الخاصة والفيلات المراقبة، فإن هذا يشكل خطرا على المدينة الأوربية، التي تعودت أن يعيش فيها الفقراء والأغنياء جنبا إلى جنب، ومدن بدون حواجز داخلية تمثل جانبا مميزا لحضارتنا الأوربية وهو ما يجدر بنا حمايته والعمل على تنمية وتطويره).[2]

ويضيف : (إلى حدود سنة 1975 لم نفكر في فعل شيء خارج روما، وكان اهتمامنا ينحصر في العمل في روما والبقاء فيها، وكنا تعتقد أن المسيحيين لم ينجحوا في تغيير واقع عالمهم الخاص، ولهذا استسهلوا الهروب إلى أماكن أخرى ، فكانوا نوعا من جبناء ، أما بالنسبة لنا فقد كان الوقت والمكان مناسبين للبدء في التغيير)[3].

وكانت البداية مع محيط الضواحي المهمشة بروما، وفي أول لقاء لهم مع هذا العالم الذي يضم الفقراء والمهمشين، نجم عنه مع طول الزمن إحداث شبكة صداقة ومساندة من أجل مبادرات تضامن قار، حيث قامت الجماعة بإيصال المساعدات الى الفقراء والمساكين بصورة أكثر فعالية، كما قامت بتنظيم أعمال خيرية لفائدة سكان الضواحي الذي كان يبلغ عددهم ثمانون ألفا جلهم من المهاجرين ، وأيضا تدريس أبنائهم اللغة الإيطالية وعلى بعد خطوات من المقر الرئيسي للجماعة، ثمانية آلاف وجبة تقدم يوميا ، ضمن ما يسمى بالعشاء المتجول ، كما قامت بفتح مطعم شعبي.يقصده كل من يتخذون من الشارع مأوى

[1] −. Andrea Riccardi : Sant Egidio l'évangile au de là du frontières p21

[2] −ن.ص.109

[3] − Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p18

لهم ولا يجدون شيئا يحميهم من قسوة الجوع والبرد،ويعيشون صراعا يوميا من أجل البقاء. ومنذ سنة 1982 تخلد الجماعة ذكرى نويل مع كل من ليس لهم عائلة.

كما قامت الجماعة بفتح مراكز لإيواء المحتاجين والعجزة والمعاقين، وتقوم هذه المراكز بتقديم مجموعة متنوعة من الخدمات الاجتماعية (توزيع المواد الغذائية والملابس) والخدمات الطبية (توفير مستوصفات طبية) وفتح مراكز ثقافية ومكتبات إضافة الى حمامات وحلاقة مجانية إلى غير ذلك .

ولأجل هذا كله تمكنت من خلق صداقة قوية مع هؤلاء الناس وبالتعايش اليومي مع هذا الوسط استطاعت الإدراك من أن هؤلاء الناس لديهم الكثير لتقديمه لو أتيحت لهم الفرصة لذلك.

وهذه الحركة التطوعية التي بدأت منذ السبعينات تطورت ونمت لتشمل ميادين مختلفة ومتنوعة ذلك أنه في السنوات الأخيرة وبسبب الأزمة الاجتماعية التي تعيشها الدول الأوربية ،إضافة إلى تردي الأوضاع الاقتصادية في بعض الدول، نتج عنه عدد كبير من البطالة وفقدان الوظائف إلى جانب التوترات العائلية وانتشار الأمراض وهذا كان السبب في ظهور أنواع جديدة من الفقر والمعاناة ، فكان على الجماعة أن تأخذها بعين الاعتبار، كتعاطي المخدرات والسيدا وغير ذلك .

وتعتبر المخدرات من آفات المجتمع الخطيرة ، ويمثل الارتفاع المفاجئ في إدمان العقاقير ظاهرة لم يسبق لها مثيل من حيث أبعادها على الأقل ، فقد انتشر الإدمان في كل مكان ويكاد لا ينجو منه أي بلد أو طبقة اجتماعية أو فئة عمرية بصرف النظر عن الجنس والعرق كما أن الضرر الواقع على الصحة الجسمية والنفسية والاجتماعية عند الأفراد والمجتمعات جعل من إدمان العقاقير خطرا عاما على نطاق العالم كله، وأصبح الإدمان مثار قلق عميق عند حكومات عديدة لأنه يؤثر في الصحة العامة وصحة المجتمع وعلى الموارد الاجتماعية.

والجماعة ووعيا منها بخطورة المسألة وأهميتها قامت بفتح مركز للعلاج من تعاطي المخدرات يقوم بتأطيره أطباء متطوعون، حيث يتلقى المريض علاجا نفسيا يتمثل

في إعادة التربية والتطوير العاطفي للمريض، وإعادة توعيته وتبصيره بالحقائق الحياتية وكيفية مجابهتها بالأسلوب الصحيح وإعادة الثقة المفقودة بالنفس وتقويتها واسترجاعها وكذا رفع المعنويات وترويض المخاوف وتهدئة القلق وإدخال الشعور بالطمأنينة والأمن والراحة النفسية وجعل هذا الإنسان المريض عضوا مفيدا وعنصرا حيويا في أسرته ومجتمعه ومحاولة بناء جدار من الثقة لإبعاد عنه الشعور بالغربة والنشاز.

والى جانب آفة المخدرات، لم تقف الجماعة مكتوفة اليدين أمام النمو المتزايد لمرض السيدا في المدن الغربية ، ولهذا قامت بفتح مركز لاستقبال الأشخاص المصابين بالفيروس لتمكينهم من متابعة علاجهم وذلك بإشراف فريق طبي مختص.

ويتفاقم مشكل السيدا وخاصة في إفريقيا تخطط الجماعة لإنشاء مركز للعلاج* لمحاربة داء السيدا في تلك القارة، التي أصبح فيها وباء السيدا مسؤولا عن أخطر وأحدث مأساة إفريقية ويحصد سنويا آلافا من البشر ويهدد الآن مئات الملايين في القارة كلها مؤثرا بذلك على النظام الاقتصادي الهش وعلى النظام الصحي والتعليمي الذي تتوفر عليه القارة .

ولم يقتصر الأمر على هذا حيث وسعت الجماعة من نشاطها التضامني ليشمل مجالات متعددة نذكر منها على سبيل المثال المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام لقسوتها وانعدام إنسانيتها وترى الجماعة أن هذه العقوبة عند تطبيقها تنتفي كل إمكانية للرجوع عنها في حالة ارتكاب خطأ قضائي فلا يمكن إعادة الحياة لبرئ نفذ فيه حكم الإعدام ثم ظهرت براءته ،بينما يمكن ذلك في العقوبات الأخرى كالسجن مثلا ثم إن الحياة هبة من الله، فهو الذي يمنحها وله وحده حق استرجاعها، ولا يجوز أن تسلب الحياة من شخص مهما كانت

* تطلق الجماعة على هذا المشروع اسم (Dream) وتخطط لإنشائه في الموزمبيق وتجدر الإشارة الى أن ميزانية الجماعية هي ميزانية متوسطة وكل مشروع جديد تقوم به الجماعة يتطلب البحث عن مصادر تمويل جديدة والتي تكون في غالبيتها آتية من جمعيات خيرية كبرى أو من منظمات دينية أو شركات خاصة أو جمعيات رعاية السلام، ويعمل كل أعضاء الجماعة بشكل تطوعي سواء نعلق الأمر بالعمل الاجتماعي داخل روما أو بمساعدات إنسانية بالخارج أو نشاطات متعلقة بجهود السلام، وأقل من عشرة أشخاص هم الذين يتلقون راتبا منتظما أنظر: Revue l'intelligent n°2/ octobre /Novembre2003.

جريمته، والبشر معرضون للخطأ في أي وقت وكما قال السيد المسيح عندما أراد القوم رجم وامرأة: (من كان منكم بريئا فليكن أول من يرميها بحجر).

وهدف العقاب في المجتمعات الحديثة ليس الانتقام والردع وإنما هو إصلاح الجاني وتأهيله للانخراط من جديد في المجتمع بوصفه عنصرا صالحا قادرا على الإنتاج والعمل الشريف والإعدام يهدم كل فرصة لإصلاح المنحرفين والضالين من أبناء المجتمع.

لقد أصبح التضامن اليوم يدخل في ثقافة حقوق الإنسان وهذا ما فتح المجال للالتزام المعاصر كما أعطى الفرصة للتفكير حول ما يزال بالإمكان القيام به في أماكن مختلفة من العالم.*

يقول أندريا ريكاردي : (عيش التضامن هو بطريقة ما عيش العمق الحقيقي للتاريخ وإذا ما قبلنا هذا التحدي ، يجب أن تكون لدينا الشجاعة لتطوير ثقافة التضامن.[1]

4- الدعوة إلى الحوار والسلام:

بدأت الجماعة كحركة تطوعية إنسانية التزامها الأساسي هو العمل الاجتماعي وخاصة في ضواحي روما لتتحول إلى وسيط دبلوماسي يهتم بالوضعيات الصعبة.

وتاريخ سانت إيجديو هو الآن تاريخ غني بمبادرات متنوعة من أجل السلام وهذه المبادرات هي التي أعطت للجماعة شهرة واسعة تجاوزت الحدود الايطالية.

ففي سنة 1992،وبعد عمليات شاقة من الوساطة استمرت إثنا عشر شهرا بين الحكومة في الموزمبيق وبين المتمردين، استطاعت الجماعة تحقيق المستحيل وهو إيقاف حرب دموية راح نتيجتها آلاف القتلى وبمرور إثنا عشر عاما على توقيع الاتفاق برعاية الجماعة مازال مفعوله ساريا إلى اليوم.[2]

* وجهت لأندريا ريكاردي انتقادات كثيرة بدعوى أنه يقوم بتطبيق سياسية واقعية للعمل الاجتماعي على طريقته وبأنه يعمل ما كان على الدولة أن تفعله وكان رده بأنه يجب الابتعاد عن اعتبار الدولة قادرة على فعل كل شيء وحدها.

[1]. Andrea Riccardi : Sant Egidio l'évangile au de là du frontières-p17

[2] -Revue l'intelligent p44.

ثم سنة 1995 والمأساة الجزائرية* تشد انتباه العواصم الغربية، تجرأت الجماعة على تجميع أبطال النزاع حول طاولة المفاوضات بما في ذلك جبهة الإنقاذ الإسلامية.

وسنة 1996 فتحت بابا للوساطة من أجل إقامة حوار بين المتمردين والحكومة في كواتيمالا، نجم عنه توقيع اتفاقية للسلام وذلك في المقر الرئيسي للجماعة بروما.

وسنة 1999 والقصف الجوي لا ينقطع عن سماء (كوسوفو) ،كانت وساطة الجماعة لإطلاق سراح الزعيم التحرري (Ibrahim Rugova) وبالفعل أطلق سراحه ليغادر بعد ذلك البلاد متوجها إلى روما.

هذا دون الحديث عن المساهمة في إطلاق كثير من الأسرى والمختطفين كل من أمريكا الوسطى ومنطقة الشرق الأوسط.[1]

وهكذا من لبنان إلى إفريقيا مرورا بأمريكا الوسطى ووصولا الى الجزائر كانت الجماعة حاضرة على مر هذه السنوات لتتدخل في صراعات مختلفة وذلك لحمل الأطراف المتنازعة على رعاية اتفاقية ما أو محاولة فتح باب للحوار وهو عمل شيق لدبلوماسية شعبية ومن أجل هذه الأمم المتحدة المتواجدة في تراستفور استحقت في يوم من الأيام تقديرات السكرتير السابق للأمم المتحدة، بطرس غالي، يقول : (لقد طورت جماعة سانت إيجديو تقنيات مختلفة ولكنها في نفس الوقت متكاملة لمثيلاتها المهنية ، ففي الموزمبيق عملت ولعدة سنوات بطريقة سرية وذلك لحمل الأطراف المتنازعة على اللقاء، وكانت بنوع خاص فعالة لحمل الآخرين على أن يسهموا هم أيضا في تقديم حل لهذا النزاع، كما وضعت أساليب جديدة قامت بالخصوص على السرية والانسجام مع العمل الرسمي والمنظمات غير الحكومية، وكان الاحترام المتبادل لطرفي النزاع أساسيا لإنجاح هذا المشروع).[2]

---

* – أثار تدخل سانت إيجديو في حل الصراع في الجزائر ردود فعل متباينة بين مؤيد ومعارض كما أثار عدة انتقادات تساءلت عن جدوى هذه المبادرات وهل كانت مؤهلة للعمل أو الوساطة في دولة ذات أغلبية مسلمة وتعالت بعض الأصوات التي دعت إلى ضرورة التدخل وإيقاف هذا التدخل.

1 –Revue l'intelligent p46.

2 .–Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p79

ومن أجل كل هذه المساهمات رشحت الجماعة أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل نظرا لمجهوداتها في خدمة السلام ومحاولتها الرفع من القيم والمعاني الإنسانية مثل التسامح والتعاون والتعايش وإنماء العلاقات بين الأمم وتحقيق التعاون الدولي ، مما يفسح المجال لتعزيز العمل الاجتماعي المشترك لما فيه الخير الإنسانية .

ولم تنس الجماعة في خضم اهتماماتها بالسلام، الدعوة إلى الحوار كطريق من طرق السلام التي تحث على احترام الحياة الإنسانية وعلى مراعاة حرمة الإنسان وأيضا دعوة الناس إلى قيم المحبة والتسامح والإخاء الإنساني .

ولقد شكل المجمع الفاتيكاني الثاني، المحطة الأبرز في مسيرة الحوار الديني وخاصة مع العالم الإسلامي* ذلك أن المجمع تحدث في القسم الثالث من الوثيقة التي صدرت عنه، عن الإسلام بإيجابية وانفتاح، ومناقضا بذلك ما ورد في رسالة البابا الأسبق (بيوس الثاني عشر) في عام 1975 والتي وصفت انتشار الإسلام في إفريقيا بأنه خطر على الكنيسة كما وصفت الحضور الإسلامي العالمي بأنه حضور كارثي لايقل خطرا عن الشيوعية.[1]

وقد جاء في دراسة أعدها الأب جوزيف كوك ولويس غارديه وقدم لها الكاردينال ماريللا المسؤول عن أمانة شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان (يجب أن نعترف وبكل شجاعة وصدق أن المسلمين لم يلاقوا من العالم المسيحي إلا القليل من التعاطف والود).

وجاء في الدراسة التي وضعت في الأساس ، لتنفيذ مقررات المجمع المسكوني الثاني أيضا: (إن عاطفة القلب دون الروح غير كافية إذ لم يكن الذكاء يعمل في قيادتها وتوجيهها، ولا يمكن استقبال الإنسان الآخر إلا إذا كنا نعرفه وأولى مهام المسيحي هي التعرف على شريكه المسلم لاكما هو بكل بساطة ، بل كما يريد أن يكون، وهذه المعرفة

* منذ أكثر من قرن قرر الكاردنيال: (charles Martin Lavergé) (1892–1825) رئيس أساقفة الجزائر ورئيس مؤسسة (الآباء البيض) الذين اختصوا بالتبشير في إفريقيا بأن الإسلام لا يمكن أن ينصر كما أن اليهود الذين يعيشون في وسط مسيحي يبقون يهودا، وقد وجدت في الفاتيكان وثائق لمهمة تبشيرية قام بها بعض المبشرين في العالم الإسلامي أواخر الثلاثينات برروا فيها سبب فشلهم بالقول أن آية مهمة تبشيرية في العالم الإسلامي هي مستحيلة مما دعى إلى تعويضها بفكرة الحوار.

[1] –Histoire universelle des mission catholique vol 3-4 Paris p5.

يجب ألا تكون معرفة عالم الاجتماع، وهي معرفة جافة وغير حارة ولكن يجب أن تكون معرفة الصديق الذي يعمل على أن يكتشف في صديقه كل ما هو حسن وجيد وعلى أن يحبه حبا صادقا.[1]

وأكد البابا بولس الثاني في رسالة وجهها تحية أخوية إلى المسلمين أثناء زيارته للقدس وعمان مرورا ببيروت في يناير 1964 على احترام أولئك الذين يعتنقون الأديان التوحيدية والذين يعبدون معنا إلها حقيقيا وواحدا.

أما الترجمة العلمية الأولى لبيان المجمع الفاتيكاني الثاني فقد كانت مع الموقف الأكثر جرأة والأكثر وضوحا الذي اتخذه البابا يوحنا بولس الثاني والذي اعترف فيه بأن الخلاص ليس وقفا على المسيحيين وحدهم، وأن الخلاص يمكن أن يتحقق من خلال أديان أخرى*، ومن هذا المنطلق كانت الدعوة التي وجهها الى كل الزعماء الدينيين في العالم لحضور لقاء أسيس سنة1986** وذلك من أجل يوم عالمي للصلاة من أجل السلام[2] وكرس هذا اللقاء الرغبة القوية في التعايش المبني على الإيمان الخاص لكل ديانة، وانطلاقا منه تفجرت طاقة قوية للسلام، وأعطى صورة مؤثرة لإمكانية التعايش والسلام بين أشخاص مختلفين الواحد بجانب الآخر جميعهم يصلون من أجل السلام وذلك باسم الإيمان.[3]

ولقد تميز تاريخ سانت إيجديوا بهذا اللقاء الديني للسلام، فملتقى (أسيس) أعطى الفرصة الذهبية للجماعة لإكمال ما بدأه البابا والاستمرار في رعاية هذه المبادرة وجعلها لقاءا سنويا يسمح بالتقاء كافة الديانات المختلفة، وفي هذا الصدد سرح أحد الدبلوماسيين

---

[1]– من أجل حوار إسلامي مسيحي ، موقف المسيحية من الإسلام كما حدده الفاتيكان ترجمة د. سليم إلياني، زهير ماريني دار الجديدة 1983 ص:31.

* استند البابا بوحنا الثاني في تصريحاته هاته على دراسة أعدتها مجموعة من علماء اللاهوت أمثال (راينر) و(فون بالتزار)و(دي لوباك) و(دانيال).

**مازالت هذه المبادرة فعالة الى اليوم.

[2]. Andrea Riccardi : Sant Egidio l'évangile au de là du frontières p8

[3]–ن–م–ص56.

العاملين في الفاتيكان: (بأن البابا لا يستطيع أن يتولى بنفسه تنظيم لقاء ديني سنوي ولكنه جد سعيد بأن جماعة سانت إيجديو تولت الأمر).[1]

غير أن هذا لا ينفي بأن لقاء أسيس أثار موجهة قوية من المعارضة من طرف المحافظين تزعمها (Marcel leferbe)* حيث اعتبر أن هذه الدعوة إلى الحوار تعرض التزام الكنيسة بالتبشير إلى الخطر.

ويرد أندريا ريكاردي على الأمر بالقول: (إن الحديث عن إمكانية التعارض المحتمل بين الحوار والتبشير ينبع من تصور خاطئ ،حتى وإن بدت الفكرة منطقية نوعا ما، ذلك أن من يعيش التزاما حقيقيا بالتبشير يعرف جيدا بأن الحوار لا يضعف من الحيية لمثل هذه المهمة).[2]

ويضيف: (بالنسبة للمسيحي عيش الإنجيل وتمثله بعمق معناها الانفتاح على الحوار وعلى الآخر، لأن الحوار ليس شيئا سوى الحب، ونحن لا نتخلى عن عيش الحب بدعوى أننا لا نتلقى شيئا بالمقابل وهذه الحقيقة الواضحة تتمثل في روح أسيس ومن هذا المنطلق كانت رؤية الجماعة واضحة لإقامة حوار حقيقي مع الأديان وهذا ما يفترض أن نعيشه صادقين مع أنفسنا ومع هذا العالم، كما لا ينبغي أن نجعل من دعوات الحوار بين الأديان وسيلة للتنازل ، إذ ليس المقصود منه أن يتنازل كل صاحب دين عن دينه أو يفرض أحد طرفي الحوار دينه على الآخر).[3]

ولهذا ففي سنة 1989 قامت الجماعة بتنظيم صلاة من أجل السلام (بفارسوفيا)، كما عملت كثيرا من أجل إمكانية تنظيم لقاءات بين المسلمين واليهود والمسيحيين والتي كانت تعتبر غير ممكنة خلال السنوات السابقة إلا في بعض المناسبات الاستثنائية ، وفي هذا الإطار يقول أندريا ريكاردي : (أتذكر الرد القاسي الذي توجه به مفتي كبير إلى

---

[1]–ن.م.ص56–57.

* Marcel leferbe 1905–1991 رئيس أساقفة دكار كان من الأقلية المعارضة لقرارات المجمع الفاتيكاني II الذي شجع على الوحدة الكنائسية والحرية الدينية، ترأس حركة المحافظين وأقام منتدى الأخوة الكهنوتية ، طرد سنة1986 بعد قيامه بتكريس أساقفة دون موافقة مسبقة .

[2]. Andrea Riccardi l'évangile au de là du frontières – p59

[3]. Andrea Riccardi l'évangile au de là du frontières–p59–58

الكاردينال مارتيني عندما اقترح عليه لقاءا مع اليهود .ويبدو لي دائما أنه من الضروري اعتبار هذا النوع من اللقاءات أولوية حتى في مثل هذه العلاقة الصعبة بين اليهود والمسلمين.[1]

واستطاعت الجماعة تجميع كل الفعاليات الدينية في أكتوبر 1991 عند التوقيع على نداء من أجل السلام لفائدة الأراضي المقدسة، وكان من بين الموقعين مفتي الجمهورية المصرية (الشيخ الطنطاوي) وحاخام حيفا (كوهن) وحاخام بوخاريس الأكبر (روسن) والشيخ (سكوتة) والباطرياك الأب الكاثوليكي ماكسيموس الأرتوذكسي غريغوريوس[2] واستمرت الجماعة في هذا الحوار وخاصة مع المسلمين على مستويات متعددة ليس من مجال لذكرها هنا بالتفصيل .

وتقديرا لمجهودات الجماعة في مجال الحوار بين الديانات المختلفة كتب عدة زعماء دينيين رسالة شكر وتقدير في (25 ماي 1995) ومضمونها: (قبل كل شيء نشكركم على مبادراتكم الإنجيلية المتنوعة والهادفة والتي أخذتم بها طوال مشواركم، فرغبتكم في أن تكونوا قريبا من الفقراء والمهمشين في مدينتكم جعلكم تعيشونه بطريقة محسوسة، ولقد كنا متأثرين حقا وبعمق بالطريقة الأخوية التي كان يخدم بها عدة مئات يوميا إن التضامن يحتاج إلى عاطفة إنسانية ولكن أيضا إلى مؤسسة حركية مثل مؤسستكم.

شكرا أيضا على صلواتكم كل ليلة والتي كان يحس فيها الشباب بأنهم في بيوتهم يستقبلون كلمات الرب غذائهم الروحي وعدة متدينين يجتمعون حولكم كل ليلة لأنهم يجدون الاستقبال والصداقة، شكرا على مبادراتكم من أجل السلام في الجزائر والموزمبيق وغيرها ، والتي نشأت كلها عن روح (Assis) وسنة بعد سنة وسيرا على خطوات يوحنا بولس الثاني استمرت في جمع الرجال والنساء على الإرادة الطيبة التي ترغب في السلام ولأجل هذا كله نشكركم من أعماق القلب.[3]

---

[1]- Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p148-147

[2] .- Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p93

[3]-Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p27-28

5- الوحدة الكنائسية:

استطاعت الجماعة، تقديم صورة قوية للوحدة الكنائسية والحوار الديني لأنها أخذت على عاتقها عيش هذه التجربة بكل أبعادها ونجحت في ذلك رغم إمكانياتها المتواضعة، ولقد أفسحت الصلاة من أجل السلام المجال للتجمع الكنائسي بين الجماعات المسيحية المختلفة فظهرت الحركة الكنائسية داخل إطار الحوار الديني بين الديانات .

يقول أندريا ريكاردي:(منذ الثمانينات كان هناك إحساس بتزايد الصعوبات في المجال الكنائسي، فقد رأينا الصعوبات تظهر ما بين الكنيسة الروسية والكاثوليكية والتي تفاقمت نتيجة الحرب في يوغسلافيا سابقا).[1]

ولكن هذه الصعوبات لم تمنع الجماعة من أن تقيم صلاتها السنوية بمدينة Bucarest ،فكانت هذه التجربة سابقة في دولة أرثوذكسية، وفي خطوة مفاجئة دعا البطرياك(Teoctis) أندرياريكاردي الى إلقاء خطاب في تجمع الأساقفة الأرثوذكس يشرح فيه معنى هذا اللقاء من أجل السلام وذلك قبل أيام قليلة من الافتتاح ، ليكون أندريا ريكاردي أول علماني وأول كاثوليكي يقوم بالتدخل في جو أرثودكسي خالص، والتجربة مرت في جو من الاستمتاع الكامل، وأظهر البطرياك الروماني الثقة الكبيرة في إمكانيات سانت إيجديو لتنظيم ملتقى من هذا النوع وهذا الحجم[2].

وفي بداية التجمع من أجل الصلاة السنوية ثم الاقتراح على البطرياك حضور الشعائر الدينية اللاتينية في الكاتدرائية وأثار حضوره جدلا كبيرا، وأستمع الحاضرون في البداية ببرود شديد ليحصل بعد ذلك تجاوب قوي، ونتيجة لهذا التفاعل حضر الجمهور الكاثوليكي الشعائر الأرثوذكسية وذلك عشية الأحد بالساحة المتواجدة وراء الكاتدرائية.

ولقد مثل لقاء (Bucarest) وقبل كل شيء تجمعا مهما للأرثوذكس أنفسهم حيث حضر اللقاء عديد من الأساقفة ورؤساء الكنائس الأرثوذكسية كما حضر اللقاء عدة زعماء

[1]. Andrea Riccardi l'évangile au de là du frontières p- 60

[2] . Andrea Riccardi l'évangile au de là du frontières p60-61

سابقون للكنائس الكاثوليكية مثل (Paoulos) من أثيوبيا و(Aron) الكاثوليكي الماروني اللبناني.

وعبر البطريارك الأرثوذكسي عن عميق اندهاشه لهذه الروح الجماعية الطيبة التي سادت طيلة هذا اللقاء وفتحت هذه الأيام التواصلية الطريق من أجل زيارة البابا يوحنا بولس الثاني الى رومانيا وهذا ما أعلنه البطريارك الأرثوذكسي والرئيس الروماني (constotines) وهذه الزيارة المهمة كانت أول تحرك (بابوي) باتجاه دولة أثوذكسية.

وبهذا تكون الجماعة قد وعت بأهمية الإنفتاح على سائر الكنائس المسيحية كما تحدث النظرة القديمة التي كانت تنظر إلى الكنائس غير الكاثوليكية نظرة عداء وحذر وبدأت مرحلة جديدة تعددت فيها اللقاءات المتبادلة واللجان المشتركة، وحدث تطور هام في الحركة الكنائيسة واتضح أن ذهنية جديدة قد نشأت وهي تقوم على القناعة بأن الاختلاف بين الكنائس يمكن تخطيه دون إرغام إحدى الكنائس على التخلي عن موقفها والارتداد الى مواقف كنسية أخرى.[1]

هذه إذن هي الخطوط العريضة لأهم المبادئ التي كرست لتميز الجماعة واعتراف الجميع بها، وكانت المبادرة مع البابا يوحنا بواس الثاني الذي استقبل كل التجمعات والتنظيمات العلمانية وكانت جماعة سانت إيجديوا حاضرة ولأول مرة ثم القبول بمنظمة غير دينية مع المنظمات الدينية الأخرى[2].

وبمرور 25 سنة على ذكرى نشأة الجماعة ، كان البابا حاضرا للمشاركة في الاحتفال بالمناسبة وذلك في 4 أكتوبر 1993 وألقى خطابا قال فيه: (منذ بداية خطواتكم كجماعة أخذتم بجدية الدعوة الإنجيلية ولم تغلقوا قلوبكم أمام معاناة الفقراء وأصبحتم تعتبرون وجودكم كدين من الحب والالتزام الدائم الذي أعطى تماره، أتذكر ما قلت لكم عندما قابلتكم في أبريل سنة 1980، بأن الإيمان يجب أن يكون واقعيا لأن ليس هناك ماهو حقيقي خارج وجود الرب).[3]

---

[1]. Andrea Riccardi l'évangile au de là du frontières. p63-62

[2] - Andrea Riccardi ;Rome et le monde , p54

[3]- ن.م: ص54.

وهذا النجاح المستمر للجماعة كان الدافع لإنشاء جماعات أخرى* في أماكن مختلفة من العالم، في إسبانيا، وألمانيا وفرنسا وحتى في موسكو، وفي إفريقيا وأندونسيا، وكلها تحمل اسم الجماعة الأم، وكل جماعة لها خصوصيتها ولها طابعها المحلي، ويعمل أعضائها وفق رؤيتهم واحتياجاتهم الخاصة، ويعد هذا الانتشار العالمي المتمثل في نشأة جماعات جديدة في عدة دول من العالم بعدا هاما مكن الجماعة من خلق محيط من التقارب والانسجام بين عوالم مختلفة وأعطى الدليل بأن الحب الإنجيلي لا حدود له، ويرجع أندريا ريكاردي ، مؤسس الجماعة هذا النجاح الى اعتبار (سانت إيجديوا ليست بمنظمة دينية ولا إطارا تبشيريا ولكنها عائلة علمانية كبيرة).[1]

لقد استطاعت هذه الجماعة الكاثوليكية العلمانية ، البحث عن سبل تطوير العلاقات المستعملة في الشخصية الفردية وذلك بالاستعانة بمختلف التقنيات الخاصة بالوعي بالذات، فكانت الطرف الظاهر والمعبر عن عملية إعادة تركيب الحقل الديني كما استفادت من معطيات العقل المنفتح المتنور والذي يؤكد على أنه من الاستحالة بما كان إقامة واستمرار الدولة العلمانية المناهضة للذاكرة التاريخية الغربية العامرة بالوعي الديني والمحتلة المساحة الأوسع في عالم وجدانيات هذه الشعوب ونفوسها.

ومن هذا المنطلق سعت إلى تشكيل الشخصية العقلانية المتنورة والإنسانية التي تساعد على إقامة الدولة العصرية الحريصة على انسجام الجسد مع الروح وعلى تناغم صحي بين متطلبات الدين والدنيا، وأيضا إعادة تجديد منظمة القيم التي يرتكز عليها الرأسمال الرمزي، والثقافي للإنسان الغربي وجعلها حاضرة في الوجدان الشعبي لا معارضتها مع بعض قيم الثقافة العصرية، وهذا من شأنه أن يقوي القناعة الفردية الحرة في العقيدة وذلك من خلال فك الربط بين الدين والسلطة وهو ربط يكبل العقيدة بأوضاع الدين كظاهرة اجتماعية ذات طابع تاريخي، كما من شأنه أن يطور الأسس الدينية للمنظومة الأخلاقية للناس عن طريق تعميق مثل الأخوة والمساواة والتسامح واحترام الثقافات والديانات الأخرى.

*النسبة الأكبر من الجماعات التي أنشأت توجد في إفريقيا (كوردي فوار، غينيا، الكامرون، الموزنبيق ، الجزائر).

[1] −revue l'intelligent n°2 Ed/ Octobre/Novembre2003 p52.

خاتمـــــة:

لقد أسست بحثي على بعدين ،الأول :قراءة تاريخ الكنيسة في ممارسة سلطتها في حقل الدين والدنيا، والثاني: كان محاولة لرصد مجالات الصراع بين العلمانية والدين، ورهاناته وأبعاده.

لقد أعطى مصطلح العلمنة لكثير من معاصرينا تصورا في التاريخ لحضارة تصوروها تلغي الدين تدريجيا، والنظرة الراكدة للأمور هي التي ربطت العلمنة بالإلحاد، نتيجة للصراعات التي وقعت بين العلمانيين وبعض ممثلي المؤسسة الدينية، وفترة الإحتدام العنيف والتعصب والمشاحنات التي عاشها الطرفان، غير أن القارئ المتأني للتاريخ يكتشف أن هناك مفكرين دينيين ساعدوا بوعي على ولادة الحركة العلمانية، وساهموا في نجاحها وفي فرنسا بالذات، كما يبين الواقع أنه في أكثر البلدان عراقة في علمانيتها خصوصا فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وحتى في روسيا نجد أن جذوة الإيمان متوقدة في النفوس ، ثم إن موقف العلمانية لم يكن واحدا من الدين والسياسة والاقتصاد، بل تفرع عنه ثلاث أنواع من العلمانية الوضعية والعلمانية الماركسية، والعلمانية المؤمنة، والنوع الأول والثاني، لم يول الأهمية المطلوبة للدين وامتداداته على ساحة الوعي والروح ومجمل الممارسة الدنيوية للإنسان، والثالث حرص على تجذير إيمانيته عن طريق عقلنتها والانفتاح والتفاعل مع الآخر والتوافق والتجانس مع الجانب الروحي والديني للإنسان، وهذا النوع لم يدر ظهره للفكر المسيحي ،بل سعى ويسعى لمساعدته من أجل إشراكه وإدماجه في العصر .

وقد عملت الكنيسة والعلمانية المعاصرة على خلق جسور من التعاون والثقة ، بعد ما قامت المسيحية الغربية بإصلاحات راديكالية على كل الأصعدة ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية بعيدة عنها وإن جاءت مواقفها اللينة من العلمنة متأخرة بالمقارنة مع الكنيسة البروتستانتية والتي كانت قريبة جدا من أطروحات العلمانيين.

وقبل هذا الموقف الجريء من الكنيسة تعديل في الخطاب العلماني المكافح الصارم(وجماعة سانت إيجديوا)، موضوع الدراسة والتحليل تعتبر أفضل دليل على ذلك،

حيث مثلت الخط الإنسجامي التوفيقي بين العلمانية والمسيحية ، وذلك بعد طرحها لغة حوارية انسجامية مع خط الكنيسة تؤكد على المحافظة على الحريات العامة ولا سيما حرية المعتقد الديني ودعم المؤسسات الدينية المسيحية في نشاطاتها.

وهكذا أمام كل تطرف ديني أو علموي ، كان هناك دائما فكر متوازن يحاول دعم فكرة الإنسجام والتفاعل بين الروح وحقل الدنيويات، وكل الدراسات السوسيوثقافية لظاهرة الإيمان في المجتمعات الغربية تدل على أن نسبة المؤمنين هي الأكثر وأن تعلقهم بالأخلاق المسيحية شديد ولعل هذه الظاهرة برزت بعد ما أتت مجتمعات الحداثة بكثير من المآسي الاجتماعية والأخلاقية والبيئية ، الأمر الذي جعل فكر ما بعد الحداثة يركز على ضرورة الحد من دور العقلانية الصارمة والعلمانية المكافحة ويدعوا الى نوع من العلمانية الروحانية الجديدة.

وهاهي المسيحية بأفضل ممثليها والعلمانيون بمفكريهم الكبار يسعون إلى إعطاء نفس جديد للحضارة الغربية يرتكز على التوازن بل الانسجام التام بين الأخلاق المسيحية والقيم العلمانية، والمحافظة على الإرث الثقافي للمجتمعات الغربية والمتمثل أساسا في الهوية الدينية، والعمل على نشر المبادئ الدينية بأسلوب علماني يتمثل في اعتقاد الدين وممارسته دون حاجة إلى تطبيق تشريعه مؤقتا إلى حين فهم المجتمع الغربي للدور الجديد للدين ، لأن الرهان المستقبلي هو رهان ديني ، وهذا ما سيسرع من حتمية المواجهة وخاصة مع الإسلام ،فهل الأمة الإسلامية مستعدة لهذا النوع من المواجهة؟

فهرس المراجع العربية والمعربة

المراجع العربية الحديثة :

1- أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ،دار الجيل، بيروت1991.

2- أحمد شلبي المسيحية ،القاهرة 1965.

3- التنير محمد طاهر ،العقائد الوثنية في الديانة النصرانية.

4- توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة 28 دار مصر للطباعة

- قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام دار الفكر العربي الاسكندرية1947 .

5- حسين سعد، بين الأصالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية عند بعض المفكرين في مصر ،ط1، 1993.

6- جيروم شاهين، العلمانية والمسيحية ، بيروت2001.

7- جوزيف مغيزل ، العلمانية والعروبة، دار النهار للنشر بيروت 1980.

8- الدين في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت1990.

9- رياض جندي الملطي تاريخ أوربا الحديث من عصر النهضة الى الثورة الفرنسية ط1، 1932.

10- زكاريا الفايد، العلمانية النشأة والأثر ،الزهراء للإعلام، القاهرة1988.

11- سالمة عبد الجبار، الدين والسياسة ، طرابلس

12- سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت 1968.

13- علي جريشة الاتجاهات الفكرية المعاصرة ط2،دار الوفاء مصر1986.

14- عبد الرحمان سفر الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، مؤسسة قرطبة.

15- عبد العظيم المطعني، الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي .

16- عرفات عبد الحميد فتاح، النصرانية نشأتها وأصول عقائدها ط1، دار عمان للنشر والتوزيع.

17- محمد مهدي شمس الدين ،العلمانية ،بيروت.

18- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د.عمر فروخ 2 دار العلم للملايين.

19- محمد علي يوسف ، الفجوة المفتعلة بين العلم والإيمان، بيروت 1966.

20- محمد سيد أحمد المسير، أصول النصرانية في الميزان ط1، مكتبة الصفا 1988.

21- محمد رفعت ،معالم تاريخ العصور الوسطى.

22- المجمع الفاتيكاني الثاني- دساتير- قرارات- بيانات- منشورات المكتبة البوليسية ط1، 1992.

23- ميلاد المقرحي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، من عصر النهضة الى الحرب العالمية الثانية، منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ط1، 1991.

24- المجتمع المدني في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1992.

25- محمد أبو زهرة ، محاضرات في النصرانية.

26- ياسين الحافظ، الإيديولوجية التقليدية الإسلامية والإيديولوجية التقليدية المسيحية في لبنان الآخر ، بيروت .

27- الهندي رحمة الله، إظهار الحق، تحقيق محمد الدسوقي ، المكتبة العصرية بيروت.

28- من أجل حوار إسلامي مسيحي، موقف المسيحية من الإسلام كما حدده الفاتيكان ترجمة د.سليم إلياني، زهير ماردينى، دار الجديدة 1923.

الكتب المعربة:

1- أ-هـ- فيشر ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة مصطفى زيادة مصر 1966.

2- أندريه كرسون، المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ترجمة عبد الحليم محمود دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1946.

3- إدوارد جيبون ، اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، ترجمة أبي ذرة ، القاهرة 1961.

4- جرين برنتن (أفكار ورجال- قصة الفكر الغربي) ترجمة مصطفى زيادة مصر 1966.

5- جنيز شارل، المسيحية نشأتها وتطورها، المكتبة العصرية بيروت، ترجمة عبد الحليم محمود.

6- رونالد سترومبرج، تاريخ الفكر الأوربي الحديث، ترجمة أحمد الشيباني.

7- هنري بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ترجمة وتحقيق عطية القوصي، الهيئة المصرية للكتاب 1966.

8- هـ-ج-ويلز معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

9- مجموعة أساتذة ،سلسلة ثرات الإنسانية ، الهيئة العامة للكتاب في مصر.

10- ول ديورانت ، قصة الحضارة ترجمة زكي نجيب وآخرون ، لجنة التأليف والنشر القاهرة 1968.

المجلات:

- مجلة الدراسات الإسلامية، العدد الرابع، المجلد 29 ، أكتوبر 1996.
- مجلة النهار 2001.
- مجلة آفاق حزيران 1978
- مجلة الجندي ، نيسان 1982.

المراجع الأجنبية

1- Andrea Riccardi , Rome et le monde, Entretien avec Jean, Dominique Durand et Régis ladous –Paris1996.

2- Andrea Riccardi san't Egidio, l'évangile au delà du frontiers entretien avec Dominique chivot sant. Edmond, Montroud 2001.

3- Frederik gogarten , destin et Espoir du Monde Moderne Tournoi, Paris 1970.

4- Dietrich Bonhoeffer, Témoin de Jésus christ parmi ses frères, Tournoi 1976.

5- Harvey Cox , la cité séculier, gasterman 1986.

6- Lesselie Newibigin une Religion pour un monde séculier.

7- M.D cheni, l'évangile dans le temps , cerf paris 1964.

8- J.Daniellou , le peuple chrétien selon peguy ,in Etude , septembre 1965.

9- Revue l'intelligent n°2 , Octobre , Septembre , Ed2003.

الفهرس

المقدمة 1

الفصل الأول:

المبحث الأول: في مصطلح العلمانية 5

المبحث الثاني: العلمانية (الفكرة والتاريخ).....17

الفصل الثاني:

المبحث الأول: كيف واجهت الكنيسة تحديات العلمانية.....57

المبحث الثاني: النموذج الغربي للعلمانية الجديدة.....77

(جماعة سانت إيجديوا)

الخاتمة :.....102